

روايات مصرية للجيب
ماوراء الطبيعة
أسطورة
رعب المستنقعات
23
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

ومع ذلك قد أظل حيًّا..!

صحيح أن حرارتي قد تجاوزت. الـ ٣٩ درجة، وصحيح أنني أرتجف كذيل حية الجرس، وصحيح أن مكتبي عامر بالأدوية التي تبتلع وتشم وتحقن وتدهن وترش..، وصحيح أن طبيبي - وهو من تلاميذي - لم يبد مهتمًا بعلاجي كثيرًا على اعتبار أن رحيلي أو بقائي لم يعد يعني أحدًا..

لكن هذه الدلائل كلها لا تشير إلى قرب رحيلي أكثر مما تشير الغيوم إلى قرب هطول المطر..

من يدري؟.. قد تشرق الشمس من جديد، وتبدد هذه الغيوم السخيفة هازئة بعلماء الأرصاد جميعًا..

ومن يدري؟.. قد أظل حيًا لأحكي لكم قصة.. اثنتين.. مائة من قصصي الكابوسية ذات المذاق الكريه..

هل تذكرون من أنا؟..

من جديد أكرر: أنا د. (رفعت إسماعيل) العجوز.. الطبيب المتقاعد هاوي الأشباح والغرائب..، والشبيه بورقة الكرم الأخيرة في تلك القصة التي نسيت اسم كاتبها.. لقد ظلت البطلة طيلة القصة تنتظر سقوط الورقة من غصنها.. لكنّ الورقة ظلت متشبثة بالغصن في عناد لا يوصف..

ولهذا سر لن أحكيه؛ لأن المجال ليس مجاله....

والآن.. دعونا نتحدث عن رعب المستنقعات..

إنه لاسمٌ موحٍ.. ذو رنين يجمد الدماء في العروق.. وإنني لأرجو أن تكون القصة على مستوى عنوانها.. لحظة حتى أغلق جهاز (الكاسيت)..

هاهو ذا!.. لحظة أخرى حتى آخذ (كبسولة) المضاد الحيوي.. فالساعة الآن التاسعة مساء كما ترون.. ذكروني فقط أن آخذ الجرعة التالية في الثالثة صباحًا.. فليس هناك من يقدم لي الدواء سواي.. جلوب!.. جلوب!...

والآن.. أنا جاهز وطوع أمركم يا رفاق...
هيا بنا....

١ - خطاب جديد..

مازلنا ـ إذن ـ في العام ١٩٦٩..

ومازلت ـ إذن ـ في داري أتسلى بمطالعة كم الخطابات الهائل الذي بدأ يصلني من بقاع المعمورة..

خطابات كتب بعضها بحروف تتجه من اليمين إلى اليسار.. وبعضها يتجه من اليسار إلى اليمين.. وبعضها يتجه من أعلى إلى أسفل.. وبعضها يشع من نقطة واحدة في المركز!...

خطابات لها رائحة البارفان الأنثوي أو (لوسيون) الحلاقة الرجولي، أو تبغ

الغلايين أو البصل، أو رائحة الخفافيش الميتة، أو رائحة عرق مصاصي الدماء، أو رائحة عصير القصب، أو رائحة لبن الماعز المختمر.. أو (الفودكا)!..

الخطاب الذي توقفت عنده اليوم له طابع القصة.. ويحمل رائحتها.. لهذا هو قصة اليوم..

وهو يتلخص في مفكرة مهترئة صغيرة الحجم، وورقة واحدة تم طيها بحيث تحيط بالمفكرة..

والورقة تحوي السطور التالية بالإنجليزية:

عزيزى د. (إسماعيل):

هذه المفكرة تحوي الأحداث المريبة والمفزعة التي وقعت شمال (إسكتلندا) في

الفترة من ٢٢/١٢/١٩٦٧ إلى ٢/١/١٩٦٨. وأنا على يقين بأنك واجد فيها ما يثير شغفك واهتمامك. ولربما أكثرت من الأسئلة فأمعنت فيها.. ولربما وجدت إجابة.. ولربما لم تجد..

كل هذا لا يهم، طالما أنك قد شعرت بتلك الكهرباء المقدسة تزحف على مؤخرة عنقك، وتسلبك القدرة على النوم.. وطالما انفتحت أبواب موصدة في خيالك حسبت أن مفاتيحها قد ضاعت منذ زمن سحيق..

عندئذ ستدخل.. ولسوف يملؤك الفرق.. بعدها تشعر بتلك اللذة الحريفة.. اللذة المريرة القادمة من أعمق آيات الرعب، ولتحتفظ بالمفكرة يا سيدي العزيز كما

تشاء بعد أن تفرغ منها.. فأنت على ذلك أقدر وبه أجدر..
أما أنا.. فكفاني ما لاقيت مع هذه السطور الدامية، فأنا أعرف أنني لن أجد في نفسي حاجة إلى هذه المفكرة مرّة أخرى..
المخلص: س. ب

هكذا فحسب!.. واضح أنّ هذا الأخ (س. ب) غير مولع بالثرثرة وإن كانت إنجليزيته راقية إلى حد لاشك فيه.. وخطه جميل (صناعي) من النوع الذي لا يخرج إلا من آلة أو إنسان يملك يد آلة..
أعددت لنفسي قدحًا من الشاي الرديء، وعدت إلى مقعدي الوثير وبدأت أتفقد ـ بأسلوب (الفرّ) المعروف - صفحات

المفكرة.. كانت في حالة سيئة في الواقع؛ تناثرت البقع في أرجائها، وأزالت كثيرًا من الحبر، وجعلت الصفحات تتجعد في مواضع عديدة..

وجدت بعض عبارات أثارت شغفي، لكنّها ـ كما يحدث في هذه المواقف ـ كانت تتراءى لعيني في لمحة، فإذا حاولت الرجوع إلى موضعها وجدت هذا مستحيلًا...

«كان الخطر قادمًا..»، «الموتى العائدون»، «ولكن الجثة لا تفزعني..».... إلخ...

إذن.. فلنحاول أن نقرأ بهدوء أكثر..

في الصفحة الأولى - باطن الغلاف بمعنى أدق ـ كانت هناك العبارات التالية:

مجموعة النداء الأولى:
أرتميس - كاسيس - هرملاكايوس
ثم بيركادوس (أربع مرات).
مجموعة النداء الثانية:
أشيوست ديمترا ـ إرسادوك
(في وجه القمر).
ثم....
«إينياس (تعمل وحدها دون معين)»
ثم ملحوظة عابرة كتبها صاحب المفكرة الأحمق:
«لا تحاول ترديد هذه العبارات بصوت يعلو على صوت وجدانك إلا بنية الاستعمال. فيما عدا ذلك تتم القراءة سرًا وبالعينين فقط..»

هنا - أصارحكم يا إخوان - بدأ (الفأر يلعب في عبي).. والشعيرات إياها على ساعدي تنتصب..

هذه تعويذات لاشك فيها.. ومذاقها يوحي - كما هي العادة - بالشياطين والعياذ بالله.. ربما هي لاستدعائها أو الفرار منها لا أدري بالضبط، لكني على كل حال لم أعد مستريحًا في جلستي.. ولكم أن تفهموا ذلك..

منذ متى يوجد هذا الركن المظلم في صالة داري؟ إن إضاءة شقتي ليست على ما يرام أبدًا.. أضف لهذا أنّ هذا التمثال الصغير الموضوع جوار باب غرفة النوم لا يبدو جميلًا.. يخيّل لي أنه يراقبني بشكل أو بآخر.. ثم إن....

لحظة!.. هل سمعتم هذا مثلي؟.. ثمّة شخص يتحرك في المطبخ.. لاشك في هذا..

إن أعصابي توشك على الاحتراق تمامًا.. والسبب بالطبع هذه الكلمات اللعينة ذات المذاق الغامض.. والغموض مرعب دائمًا ومنذ أن اصطلك الإنسان هذه الكلمة..

إن هناك حلًا واحدًا يضمن لي سلامة قواي العقليّة، وأنتم جميعًا تعرفون هذا الحل....

نعم... هو كذلك!

* * *

- «بسم الله الرحمن الرحيم!.. قد عاد الكابوس الحى!»

هتف (عزت) - جاري العزيز - في هلع وهو يفتح الباب ليراني أقف على باب الشقة حاملًا المفكرة في يد، وكوب الشاي في يد.. وأحاول أن أبتسم في تودد..

- «هل لديك كائن بروتوبلازمي آخر يا جلاب المصائب؟»

قلت له في رقة وأنا أدخل شقته:

- «ما هذا الهراء يا (عزت)؟.. نحن الاثنان جاران... وكلانا وحيد كالمجذوم.. برغم هذا لا نرى بعضنا إلا لمامًا... لماذا لا نعيد تجديد صلاتنا من حين لآخر؟».

- «جئت متوددًا إذن لا مهددًا؟».

- «جئت أخًا..»..

- «في منتصف الليل؟».
- «إنما نحن طفلا الليل التوءمان...».
- «إذن اجلس عليك اللعنة..».
وجلست.. هذا هو كل ما أصبو إليه.. دفء الصحبة الآدمية وأنفاس شخص. أعرف يقينًا أنه ليس شيطانًا ولا جنيًا ولا مصاص دماء ولا مسخًا.. صحيح أن (عزت) يبدو كهذا كله، لكنه مظهره الذي لا ذنب له فيه..
الآن أستطيع قراءة تلكم المفكرة في هدوء..
لكن (عزت) لم يكن غرًا ساذجًا، ولم يكن ليفوت الفرصة الثرية التي قدمها له القدر بعد منتصف الليل...

وهكذا شرع يثرثر عن عبقريته، وعن أعماله الفنية الرائعة حتى تمنيت أن أدس إحدى هذه التحف في حلقه ليخرس تمامًا..، لهذا قلت له في فتور:

- «(عزت).. لماذا لا تنهض وتمارس عملك؟».

- «لن أتركك تشعر بالسأم..»..

- «كيف أشعر بالسأم وأنا أرى ميلاد عبقرية أمام عيني؟».

- «ربما أنهض.. ولكن بعد قليل..»..

عليه اللعنة!.. لن أتخلص من هذا اللزج أبدًا.. كأنه ليس من أبسط حقوقي البشريّة أن أذهب إلى شقّة جاري بعد منتصف الليل لأقرأ ما أريد عنده...

هنا مال ليرى المفكرة..

وفي فضول تساءل:
- «ما هذه؟».
- «يخيّل إليّ أنها مفكرة..».
- «رد ينم عن ذكاء.. دعني أرها..».
ومد يده وأمسك بها وراح يتصفحها.. لحسن الحظ أن إنجليزيته رديئة جدًا برغم كثرة من يلقاهم من أجانب..
نهضت أتفحص تمثالًا مرعبًا في ركن الغرفة، يمثل رجلًا يتألم وهو يحاول أن يفقأ عينه بدبوس شعر...
- «موضوع غريب بعض الشيء يا (عزت)؟».
- «هذا (أوديب) يا (رفعت) في قمة مأساته..».

- «أعرف هذا.. لا يوجد أناس كثيرون من هواة فقء عيونهم الخاصّة في هذا العالم.. لكنه موضوع شاذٍ».

- «ليس أكثر شذوذًا من هواياتك الخاصّة.. تأمل هذا الهراء الذي تقرؤه..»

- وراح يتلو بالإنجليزية الرديئة بعض العبارات - «مجموعة النداء الأولى: أرتميس - كاسيس -...... إلخ».

كنت أنا أتأمل التمثال في فضول وأدور حوله، وقد هالني مدى قبحه وبشاعته، لهذا لم أعط أهتمامًا لما يقوله (عزت) بصوت عالٍ.. وبلهجة خطابية مزعمة:

- «إينياس (تعمل وحدها دون معين).. ملحوظة: لا تحاول ترديد.......».

وهنا انتبهت إلى ما حدث..

رفعت عينين مشدوهتين إلى (عزت) لأجده منهمكًا في القراءة، وهو يؤرجح رأسه يمينًا ويسارًا ليبدو ظريفًا.

قاطعته بصوت مبحوح:

- «(عزت).. آ.. هل قرأت الأسماء كلها؟».

- «هه؟.. طبعًا..».

- «بـ.. بصوت مسموع؟».

- «ماذا تعني؟».

- «لا شيء.. لا شيء.. كنت شارد الذهن لا أكثر!».

* * *

٢- الكوخ..

سأحاول أن أكون موضوعيا...
قد وعدتكم أننا سنقضي الوقت بين صفحات المفكرة، فلا داعي إذن لأن أستولى على القصة في هذه المرّة..
الموقف كما يلي: أنا جالس على الأريكة في دار (عزت) أطالع المفكرة، بينما هو عاكف على كتلة من الصلصال يشكلها بيديه العاريتين.. في فمه غليون يطبق عليه بأسنانه.. بتلك العصبية وذلك الغل اللذين رآهما في مثالين آخرين سواه، فقرر تقليدهما.. وعلى صدره تلك المريولة

البلاستيكية التي يسميها الأطباء (ماكنتوش)..
لن أصارحه برأيي في أن كتلة الصلصال تبدو هكذا أجمل مما ستكون عليه بعد أيام من العمل المضني من جانبه.. موسيقا (شوبرت) تفوح كالعطر في المكان.. و..
- «ليس (شوبرت) يا (رفعت).. بل (ليست).. ظننتك تعرف الفارق بينهما..».
لن أصارحه مرّة أخرى أنني العدو رقم واحد للموسيقا الكلاسيكية، ولأعد الآن إلى المفكرة..
للإنصاف أقول: إن المفكرة مكتوبة بنظام ودقة.. لكنّ ما بها لا يكفي - لو نشر - ليغطى أربعين صفحة.

لهذا سأعيد السرد.. ولكن بطريقة أكثر تفصيلًا وتمهلًا..
وبأسلوبي أنا....

❋ ❋ ❋

شيء ما........

❋ ❋ ❋

تدور أحداث هذه المذكرات في الفترة من ٢٢/١٢/١٩٦٧ إلى ٢/١/١٩٦٨..

❋ ❋ ❋

من البداية يسهل عليك معرفة أن صاحبة المفكرة هي السيدة (هيلين ماكجواير) زوجة (أندرو ماكجواير)..

يبدو واضحًا كذلك أن (أندرو) مهندس معماري، وأن شيئًا ما ليس على ما يرام بينه وبين (هيلين) فهي تتحدّث عنه بشيء من فتور وعدم ود.. صحيح أنها لا تناديه بأسماء على شاكلة (المدعوق) أو (اللي ما يتسماش) على غرار زوجاتنا المصريات ذوات الحس اللغوي المرهف؛ لكنك تقرأ هذا مما بين السطور...

الأخ (أندرو) راغب في قضاء وقت طيب في الكوخ الذي يملكه؛ وهذا الكوخ يقع شمال (أسكتلندا) قرب أخدود (جلن الكبير) الذي يقسم مرتفعات (أسكتلندا) إلى

شطرين ينحدر أحدهما نحو (لوخ موند) وينحدر الآخر نحو (أبردين)..
هناك ـ لمن يعرفون (أسكتلندا) - يوجد ممر يُدعى (ممر سبتال أوف جلنشي).. تتفرع بقرب هذا الممر ألعن شبكة مستنقعات في (إنجلترا).. هي عبارة عن مساحة شاسعة من المياه الراكدة شيطانية الرائحة، تنعقد فوقها شبكة من الضباب وسحب غاز (الميثان) التي تحيل المكان جحيمًا حقيقيًا....
لم يكن واحد من الأقدمين يقصد هذه المستنقعات فقط..، فهي لا تبدو مكانًا محببًا للنزهة..
وعلى كل حال.. كان من السهل أن يضل المرء فيها.. أو يغرق.. أو تنزلق قدماه

ويدق عنقه...
وبالطبع لم يكن كوخ (أندرو) وسط هذه المستنقعات؛ لكنه قريب منها إلى حد كبير.. يوجد ممر ما بين الأشجار يقودك من باب الكوخ إلى تلك الأوحال..

أما الكوخ ذاته فكوخ ريفي جميل مصنوع من الأخشاب، ومعد لإقامة أربعة أفراد به..، وكان الوصول إليه يتم عن طريق الصعود بالسيارة في طريق صاعد.. ثم العبور فوق جسر صغير عتيق.. وعندئذٍ تجد نفسك في جنة (ماكجواير)..

لاحظت كذلك أن المرأة تصف الكوخ في مذكراتها بشيء من التفصيل وهو غير معتاد بالنسبة لشخص يكتب لنفسه.. فأنت لا تسود عدة صفحات من مذكراتك في وصف غرفة نومك لنفسك.. لكنى فهمت مجازًا أن المرأة تزور الكوخ للمرة الأولى في حياتها، زوجها اعتاد المجيء إليه.. أمّا هي فمبهورة مدهوشة من كل شيء.. وهي



بالطبع لم يكن كوخ (أندرو) وسط هذه المستنقعات ؛
لكنه قريب منها إلى حدٍّ كبير ..

لا تحب هذه الرحلة كثيرًا وهو شيء طبيعي ما دمنا نعلم أنها لا تحب زوجها - هو الآخر - كثيرًا..

بقي أن أسمي لك الضيفين المرافقين للزوجين..

هما زوجان شابان.. مسز ومستر (ستوكلي).. بالطبع لم تذكر المفكرة شيئًا عن مظهرهما لهذا أترك تخيل هذا المظهر الخيال القارئ.. وهي مهمّة سهلة.. إن عبارات على غرار (داعب شاربه بيده) أو (سال العرق على لغده البدين) أو (راحت تمشط خصلات شعرها الأشقر) أو (ضحك كاشفًا عن أسنانه النخرة) تكون كافية في العادة لرسم صورة لا بأس بها. للأبطال.

يعتزم الزوجان (ستوكلي) قضاء العطلة مع الزوجين (ماكجواير) في كوخهما.. لا أدري أية عطلة هي.. ولكن.. بالتأكيد..!.. ٢٢ ديسمبر.. لابد أنها إجازة أعياد رأس السنة.. وهى ما هي بالنسبة للأجانب حيث تختلط الثلوج البيضاء بالأناشيد.. ويختلط صوت أجراس الكنائس بصوت الأجراس المعلقة في رقبة (الرنة)، وهي تنهب الثلوج حاملة (بابا نويل) وما معه من هدايا، سيدسها في جوارب الأطفال المعلقة على حاجز المدفأة..

وهكذا...

نرى أن المفكرة تبدأ برحلة تقوم بها المجموعة الرباعية في سيارة صغيرة تحمل على ظهرها لوازم الإقامة كاملة..

وهي رحلة طبيعية لا مشاكل فيها سوى الصمت المطبق ما بين الزوجين (ماكجواير).. ذلك الصمت الذي جثم في السيارة ككابوس أسود عتيق؛ وأصاب الزوجين (ستوكلي) بعدوى الصمت.. صمت الحرج هذه المرّة...

وتتحدث مسز (ماكجواير) هنا عن لعنة الإجازات.. فتقول:

- «لعنة الإجازات هي لعنة أزلية تحل بكل من يقرر قضاء إجازة.. خاصة إذا كان الزوج مثقلًا بالأعباء والهموم. عندئذٍ يبدو متوترًا عصبيًا نافد الصبر في ليلة السفر.. ويغدو على استعداد للشجار لأي سبب وأوهى سبب.. ولهذا يندر أن يكون الزوجان على ما يرام في الصباح قبيل

سفرهما.. لابد من مشاجرة تفسد كل شيء.. ويتحول السفر إلى نوعٍ من أداء الواجب، وإيفاء لالتزامات وارتباطاتٍ عدة بعضها شخصي وبعضها مالي..، إن لعنة الإجازات أبدية ولا ترحم أحدًا.. وعندما تأتي لا يبقى معنى لأى شىء».

هذا هو ما قالته بأسلوب. لا بأس به..

نعود الآن إلى السيارة التي يسود جوها ذلك الفتور الصامت.. أو الصمت الفاتر..

كان على (أندرو) عبور الجسر.. وهو أخطر جزء من الرجلة بسبب الهاوية العميقة التي تتمدد تحت الجسر كوحش يفغر فاه...

في البدء غادر السيارة ونزل يتفقد أخشاب الجسر بقدمه، كجندي يمهد لعبور

رتل من الدبابات فوق جسر ألماني يسيل له لعاب المقاومة الفرنسية..
- «لا بأس..!»
وببطء عاد إلى السيارة وأدار محركها..
وراحت العجلات تتحرك بحذر فوق الأخشاب المقعقعة.. والجسر ذاته يهتز يمينًا ويسارًا..
- «(أندرو)!.. كفاك هذا.. فلنعد!»
قالتها (سارة ستوكلي) في توتر من المقعد الخلفي.. لكنّ أوان التراجع قد ولّى.. فالسيارة الآن في منتصف الجسر.. والعودة تحمل ذات خطر التقدم..
كري ي ي ي كريك!.. كريك!.. تشوك!
وأخيرًا!.. تلمس عجلات السيارة أرضًا ثابتة، وتخرج الأنفاس من الصدور بعد

طول احتباس...

صاح (جون ستوكلي) في مرح:

- «كانت تجربة مثيرة يا زميلي!.. لكنّها خطرة..»

رسم (أندرو) ابتسامة مفتعلة على شفتيه اللتين تيبستا من طول الوجوم.. وقال:

- «كانت هذه مبالغة مني.. فالجسر أقوى مما يبدو..».

- «أوه.. ربما.. لكنّ كل شيء يكف عن أن يكون جيدًا في لحظة معينة من حياته.. وهذا الجسر شيء.. قد تكون هذه هي اللحظة المقصودة!».

- «إن هذا يحتاج إلى نحس مبالغ فيه..».

ومن جديد ساد الصمت..

الكوخ يتبدى من بعيد.. في الواقع بدا لهم كأنهم ثابتون والكوخ هو الذي يدنو منهم أكثر فأكثر..

قالت مسز (ستوكلي) وهي تشهق انبهارًا:

- «إنّه جميل...».

وقال زوجها في مرح:

- «إن ذوق (أندي) جميل يا (هيلين).. ألا ترين ذلك؟».

- «هم م م م!».

قالتها في فتور دون أن تتخلى عن طابع (الاشمئناط) العام الخاص بها..، وتوقفت السيارة.. ونزل الرجلان منها لينزلا حاجيات السفر والحقائب من على ظهرها..

مسح (أندرو) عويناته (إذن هو يرتدي عوينات) واتجه بحملة الثقيل إلى الباب، فأولج المفتاح في القفل العملاق العتيقٍ المعلق هناك.. وفي حذر فتح الباب محدثًا ذلك الصرير الحزين الطويل لباب عجوز يتاوه من آلام مفاصله..

على حين وقف (جون) جواره يتأمل المكان..

ـ «لقد تكاثف الجليد حقًّا..»..

قال (أندرو) لاهثًا وهو يحمل حقيبته:

ـ «إن داخل الكوخ هو جنة حقيقيّة في ليالي الشتاء..، وهذا هو البرنامج الأساسي لنا..».

ثم نادى المرأتين كي تلحقا بهما...

وبينما المرأتان قادمتان تتعثران وسط الجليد المتراكم على الأرض؛ مال (أندرو) وهمس بشيء ما في أذن رفيقه..

لم تسمع (هيلين) - صاحبة المذكرات ـ ما قيل طبعًا.. لكنّها عرفته بعد أيام، كان ما قاله (أندرو) لـ (جون) هو:

- «يخيّل إليّ أنّ هناك من عبث في محتويات الكوخ... ولكن لا تخبر المرأتين بذلك الآن!!».

....

* * *

٣- أحدهم كان هنا..

شيء ما يتحرك هناك......

* * *

توجد أخشاب في المدفأة.. يرونها في الضوء الخافت..
اتجه (أندرو) إلى هناك، واستعان بعود ثقاب وزجاجة من (الكيروسين) ليشعل النار في هذه الكومة.
الدفء يغمر المكان بذلك الإحساس البهيج.. النار.. أول صديق للإنسان وأول عدو له.. ذلك الوحش رائع الجمال يرقص

رقصته السرمدية وضوؤه الذهبي يترقرق على الوجوه...

بعد هذا حمل (أندرو) (جركن) عملاقًا من المازوت، واختفى بعض الوقت.. بعد ثوان تعالى صوت الهدير الكئيب المميز لمولدات الكهرباء...

وعاد باسمًا ليعلن لهم:

- «يمكنكم إضاءة المصابيح الآن..»..

بعد الضغط على عدة مفاتيح غمر النور البهيج المكان..

كان الكوخ في حالة جيدة.. واستطاعوا أن يروا (أنتريه) صغيرًا أنيقًا بقرب المدفأة.. وفراء دب يغطي الأرضية الخشبية، وفوق رف المدفأة توجد ساعة

حائط يدق بندولها بانتظام وعقاربها تشير إلى الوقت الصحيح: الثالثة بعد الظهر..

كانت هناك مكتبة مشي لها (جون) ووقف يتأمل كعوب مجلداتها.. مسرحيات (شكسبير).. الإنجيل.. قصص عن (روب روي).. ومجلد سميك له كعب مهترئ كتب عليه بخط مذهب: إكليبوس...

سألت (سارة) صديقتها وهما تصطليان أمام النار:

- «كيف تأتى أنك لم تجيئي هنا قط؟»

مدت (هيلين) يدها إلى حقيبة يدها فتناولت علبة سجائر، وأخرجت لفافة دستها بين شفتيها.. لم تكن في حياتها من المدخنات، لكنّها تعلّمت من السينما أن مضطربي الأعصاب الفاشلين في حياتهم

يدخنون بشراهة.. وهي كانت مضطربة الأعصاب فاشلة في حياتها، أو هكذا كانت تعتبر نفسها منذ عام...

قالت لـ (سارة) وهي تشعل لفافة التبغ:

- «كان يهوى هذا الكوخ قبل زواجنا.. ونحن متزوجان منذ عام أو أكثر قليلًا كما تعلمين، فلم تتح لنا الفرصة للقدوم هاهنا معًا..».

همست (سارة) وهي تتامل النار:

ـ «إنّه لمزاج غريب إلى حدٍ ما.. هذا الانعزال.. وكل هذه المستنقعات..».

ـ «يقول دومًا عبارة واحدة: إنّه يثير الخيال..».

ـ «إنّه على حق...».

وعادت الصديقتان تتأملان النار..

* * *

(جون) و(أندرو) يتهامسان حيث وقفا أمام المكتبة..

تساءل (جون) وهو يقلب صفحات (شكسبير):

ـ «ما الذي دعاك للظن بأن هناك من دخل الكوخ؟»

قال (أندرو) في صوت خفيض جاد:

ـ «هذا النظام والتنسيق المبالغ فيهما.. لا يوجد غبار.. لا خيط عنكبوت واحدًا.. لا رائحة عطن.. لا تنس أننا نتحدث عن كوخ لم أدخله منذ أكثر من عام..»..

- «هل تعني أنّ هناك من كان يتسلل إلى الداخل.. ويقوم بأعمال التدبير المنزلي متطوعًا؟»
- «لا أدري.. أشعر أنه كان هناك من يسكن هنا..».
- «وهل فحصت النوافذ؟».
- «كلها موصدة من الداخل بمزاليجها المزدوجة.. والقفل على باب الكوخ لم يتزحزح من موضعه.. كل شيء على ما يرام...».
- «إذن أنت تهذي..»..
- «أتمنى هذا.. لكنى أستبعده..».
ثم أضاف (أندرو) وهو يحدّق في وجه صاحبه:

ـ «ثمّة شيء آخر... توجد أخشاب كثيرة في المخزن.. لكني لم أضع خشبًا في المدفأة خلال إقامتي الأخيرة هنا.. وهذه ـ لعمري - نقطة أخرى لا أرى لها تفسيرًا!».

* * *

منذ عامين كانت جالسة في ذلك المطعم وحيدة ترشف الحساء وتطالع الجريدة..، وجاء ذلك الشاب الرزين الذي يرتدي العوينات وبدلة أنيقة تنم عن ذوق جيد..

في تهذيب سألها:

- «هل هذا المقعد خال؟».

هزت رأسها أن نعم.. وسمحت له بالجلوس، وعادت تطالع الجريدة.. كل ما علق بذهنها من وجهه هو عيناه النفاذتان المصممتان..

لابد أنه حاول التودد إليها كثيرًا.. حاول فتح سبل الكلام.. لكنّها لم تكن في حالة نفسية مهيئة للاتصال بالآخرين.. لماذا يبحثون عنها؟.. لم يضايقونها؟..

كان يواصل الكلام.. وهي تتجاهله..

بعد قليل بدأ العبء النفسي يتزايد على روحها... لا تدري كيف حدث هذا لكنه حدث..

شعرت بخيط من المخاط يسيل على شفتها العليا.. وبلل غير معتاد يغمر خديها.. ثم انفجرت باكية!

* * *

انتهى (جون) و(سارة) من إعداد المأكولات على المائدة الخشبية الصغيرة التي في وسط القاعة..، بعض الخبز المقدد والمعلبات.. كانا قد وضعا باقي الأطعمة التي جلبوها معهم في الثلاجة الصغيرة بالطابق الثاني...

وللمزيد من الرومانسية أشعلت (سارة) شمعة وضعتها في وسط المائدة..

وجلس الأربعة يأكلون.. وإن ساد الصمت من جديد.. فكرة جديدة لشيءٍ يُقال.. شيء يُقال.. راح كل منهم يجيل فكره في أمور

الدنيا بحثًا عن شيء ما يمكن أن يقطع هذا الصمت دون جدوى..

وهنا وجدت (هيلين) عبارة مناسبة:

- «هل المستنقعات خطرة يا (اندرو)؟»

راح (أندرو) يلوك الطعام.. وجرع من الشراب جرعة.. ثم غمغم باسمًا:

- «حقًّا هي خطرة.. ولا أنصح أحدًا بالتجوال فيها..».

- «إن الجليد يزيد الأمر تعقيدًا..».

- «ليس الجليد فقط...».

وازدادت ابتسامته غموضًا..

* * *

- «أستميحك عذرًا.. لم أقصد أن أدميك..».
قالها وهو يربّت على معصمها..
كانت حائرة في كارثة المخاط النازل من أنفها، أين ذهب هذا المنديل اللعين؟.. لماذا لا تجده في حقيبتها؟ إن هي إلا ثانية ويتدلى على المائدة وتحدث الفضيحة.
لهذا غمرها الامتنان حين وجدت ذلك المنديل النظيف العطر في يدها.. وعلى الفور.. بتوووووووووه!..
أخيرا استطاعت أن تتكلم.. قالت في حرج:
- «أنا التي أعتذر.. لقد بدوت لك حمقاء..».

- «لا عليك.. ليتك تعرفين كم يحسد الرجال النساء على دموعهن.. لابد لبركان المشاعر أن ينفجر خارجنا وإلا انفجر داخلنا..».

وكانت هذه هي البداية..

إن ذروة العلاقة الحميمة بين اثنين هي لحظة الدموع.. وهما قد بدأ بها..!

واستغرق بعض الوقت - أيامًا - حتى يعرف سر بكائها في تلك اللحظة..

* * *

قال (أندرو) ضاغطًا على حروف كلماته:

- «هل تعرفون سر حبي العارم لهذا الكوخ؟».

- «الهدوء على ما أعتقد؟».
- «بل الرعب..!».
قالها بصوت كالفحيح.. حتى إن الهواء الخارج من فيه مع المقطع الأخير جعل لهب الشمعة يتراقص..
وأحست (هيلين) بقشعريرة.. فهي دون سواها تعرف حتمًا مدى صدق هذه العبارة الأخيرة..
- «هواية غريبة على ما أظن؟»
- «نعم.. الرعب.. الرعب الذي يزحف على العروق ويوشك أن يجمد الدماء فيها.. الرعب الذي يسري فوق عمودك الفقري كالجليد يزحف فوق ظهر دجاجة في ثلاجتك..».

كانت عيناه تلتمعان وراء زجاج العوينات في شبق شهواني.. وخطر لـ (سارة) أن الرجل لا يبدو على ما يرام...

ثم إن (أندرو) مال على المائدة هامسًا:

- «هل تعرفون من كان يعيش في هذه الأصقاع قديمًا؟».

- «الجرمان؟»

- «كلا.. بل قبائل (السلت).. إنها قبائل عجيبة حقًّا.. ونحن لا نعرف الكثير عنهم.. لكنّ كل حجر هنا وكل بركة ماء تداري سرًا عتيدًا من أسرارهم.. هل تسمعون عما يُقال بصدد هذه المستنقعات؟».

- «لا..».

نهض (أندرو) إلى المكتبة تتبعه نظرات الجالسين، وراح يتفقد الكتب فوق رفوفها..

ثم قال دون أن يدير ظهره:

- «ثمّة أسطورة تقول: إنك إذا غمرت جثة في مياه هذه المستنقعات؛ فإنها تعود للحياة بعد أسبوع!»

واستدار راسمًا على وجهه بسمة شيطانية:

- «بالطبع تعود ملوثة بالأوحال.. لكنّها تعود.. ألا ترون في هذا معجزة ما؟!».

............!

* * *



وأحست (هيلين) بقشعريرة .. فهي ـ دون سواها ـ تعرف حتمًا مدى صدق هذه العبارة الأخيرة ..

٤ - حكايات مشئومة..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات...

* * *

عندما قابل (أندرو) (هيلين) كانت في حضيض معنوياتها..
كانت قد انفصلت عن زوجها الأول لأنّه (لم يعد يحتمل روحها البليدة) على حد قوله..
وبعد شهر فقدت عملها كسكرتيرة في إحدى شركات الدعاية، وعندئذٍ لم يعد

أمامها سوى أن تنهار.. امرأة في منتصف العمر بلا رجل.. بلا أطفال.. بلا مورد..
إن الإنسان الغربي وحيد.. وحيد إلى حد مروع..
ولهذا حين دخل (أندرو) حياتها بنعومة كورقة صفصاف تسري فوق مياه جدول: لم يكن لديها مخرج آخر سوى أن تهيم به حبًا، وكان هو رقيقًا لطيف المعشر.. وتزوجا.. ولأيام حسبت أنها لم تسقط من فوق مائدة القدر كما ظنت..
لكن شيئًا ما طرأ على حياتهما..
شيئًا لم يدر بخلدها من قبل..

* * *

صاحت (سارة) في دلال:
- «كفاك إثارة لرعبنا يا (أندرو)!».
ضحك (أندرو) حيث وقف بجوار المكتبة.. وقال في إصرار:
- «إنها لقصص حقيقيّة يا صغيرتي.. أعني أنّ هناك من يؤكد أنها تحدث...».
في ريبة تساءل (جون):
- «إذن أنت تأتي هنا لتلتذ باجترار هذه القصص وحيدًا جوار نيران المدفأة؟».
- «بالتأكيد.. أجلس أتأمل النيران.. وأتصور لو أنّ أحد هؤلاء الموتى الأحياء قد عاد الآن.. وهو يرفع يده الملوثة بالأوحال ليقرع بابي!.. عندئذٍ ماذا سيحدث؟.. هل أصرخ؟.. هل أجن؟».

- «هذا - لعمري - مزاج مفرط في (الماسوشية) يا صديقي إلى درجة أنه يحتاج دراسة ممحصة من محلل نفساني..»

- «لكنني أستمتع به حقًّا..».

ثم إن (أندرو) تناول من المكتبة صندوقًا صغيرًا.. صندوقًا من الخشب العتيق الذي تم تدعيم جوانبه برقائق مذهبة.. وقد أوصد برباط من الجلد المظفر المتأكل...

عاد به إلى مائدة الطعام حيث جلس الثلاثة الآخرون، ووضعه في مركز المائدة ليراه الجميع..

تساءلت (سارة) وهي تريح ذقنها على قبضتها:

- «ما هذا؟.. صندوق سجائر؟»

قال (أندرو) بنفس الابتسامة الغامضة:

- «لا أحد يضع السجائر في المكتبة إلا إذا كان مخبولًا»

ثم خلع عويناته وسلط نظراته النفاذة على الجالسين:

- «هذه عجيبة أخرى من عجائب هؤلاء (السلت).. صندوق الآلام.. المعادل لصندوق (بندورا) الشهير..»

- «(بندورا)؟»

- «نعم.. في الأساطير الإغريقية.. الصندوق المغلق الذي ظل يثير فضول حواء الأولى (بندورا).. إلى أن صار الأمر أقوى منها.. فتحته.. فإذا بروح الألم والمجاعة والفقر والمرض تخرج منه لتجتاح العالم الخارجي..»

- «وهذا الصندوق؟»
قال بصوت هامس:
- «هذا الصندوق انتقل من يد ليد.. آخر من امتلكه هو تاجر أسكتلندي عجوز.. قال لي وهو يحتضر: إن (شيطان الألم) حبيس في هذا الصندوق..، الملاحظ أن كل من فتح هذا الصندوق مات وهو يتلوى ألمًا والدم ينزف من أنفه وفمه..، وكان التاجر آخرهم..»
وابتلع ريقه.. وبعد هنيهة أضاف:
- «التحدي هنا هو: نحن لا نؤمن بالخرافات.. وكلنا مثقفون متحضرون.. فهل نفتح الصندوق!؟»
ساد الصمت الثقيل لدقائق..

تبادل الجالسون النظرات، ولم يقل أحد شيئًا..

كان الصندوق جاثما بينهم كقنبلة تنتظر من يلمسها لتنفجر، ولدهشة (جون) أحسّ أن حاجزًا مكهربًا يحيط بالصندوق ويحول دون فتحهم إياه.. كلمات (أندرو) صارت لها قوة حاجز سميك من الزجاج... حاجز لا يمكن كسره..

- «إذن.. أحاول فتحه أنا!».

قالها (أندرو) ومد يده إلى الصندوق، وأزاح الرباط الجلدي المحيط به...

* * *

لماذا تغيرت يا (اندرو)؟

إن المرأة تفهم أن يكون الرجل وقحًا.. أو عصبيًا أو وغدًا.. أو أنانيًا.. أو بخيلًا.. أو كاذبًا..

لكنها لا تفهم أن يصير غير مبالٍ بها..

يعود للدار صامتًا.. يجلس أمام التليفزيون صامتًا.. يأكل صامتًا.. ينام صامتًا.. بل ويتكلم صامتًا إذا فهمت معنى هذا..، عيناه تتجاوزانها لتريا من خلالها.. بالنسبة له هي لوح زجاج.. والمرء لا ينظر للوح زجاج أبدًا.. بل يخترقه ببصره إلى العالم الواسع وراءه..

لقد وضع ذلك الحائط بينهما وصار من العسير أن يزول...

وبرغم هذا لم ترَ منه كراهية ولا تقصيرًا.. هو يؤدي واجباته كآلة تفعل ما

يُطلب منها دون حب ولا مقت.. فقط تؤديه..
وكان هذا يفوق قدرتها على التحمل..، كان يعود متأخرًا دون تفسير.. ويسافر (لمقتضيات العمل) أسبوعًا كل شهر.. ويعود لها حاملًا هدية.. التعبير الرخيص عن عاطفة لا وجود لها..
وأدركت أنه الملل..
لقد قال زوجها الأول: إن روحها بليدة.. من يدري!.. ربما كان محقًا فيما قال.. من العسير أن يكون زوجاها - بالصدفة البحتة - سريعي الملل...
قرأت كثيرًا من كتب الزواج، وحاولت أن تبدو وتكون أفضل، لكنّ الأمر كان أعمق وأخطر من بضعة مساحيق تضعها

أو ثياب جديدة تبتاعها.. لقد كان هوائي التليفزيون يومًا في وضع حساس يسمح له بأن يكون على موجة الروحين معًا.. أمّا الآن فقد حركته الريح، ولم تعد أية عطور ولا ثياب قادرة على إعادته إلى سيرته الأولى...

متى عرفت أنه يتردد كثيرًا على هذا الكوخ؟

لا تدري بالضبط.. ربما كان ذلك حين عاد من السفر ووجدت عداد الكيلومترات في السيارة يشير إلى ذات بعد الكوخ مقسومًا على اثنين... وربما تلك الأوحال التي وجدتها على أحذيته عدة مرات كلما عاد.

خطر لها أنّ هناك امرأة أخرى..

بالتأكيد هو كذلك لأن القصة دائمًا هكذا..
ولكن من هي؟.. من هي؟

* * *

كان الصندوق قد انفتح..
ودون وجل امتدت يد (أندرو) داخله..
وحين خرجت؛ كانت مليئة بقطع (الشيكولاتة)..!
وتعالت صيحات المرح الضاحك.. وحتّى (هيلين) لم تستطع منع الابتسامة التي ارتسمت على ركن ثغرها.. فالدعابة كانت موفقة حقًّا.. وتم الإعداد لها بإتقان..
تناول كل منهم قطعة من الشيكولاتة راح في استمتاع يلوكها.. وتساءل (جون) في

خبث:
- «شيكولاته (سلتية) من القرن الثاني عشر؟ هل أنت مطمئن إلى تاريخ الصلاحية؟!»
- «لا تنكر أنني خدعتكم جميعًا..»
نهضت الزوجتان لتقوما بواجبهما الأنثوي من جمع الأطباق وخلافه، أمّا (جون) فتمطى متثائبًا.. وأعلن أن وقت النوم قد حان فقد انتصف الليل..

تقع حجرتا النوم بالطابق العلوي من الكوخ، وإذ تمنى كل من الزوجين ليلة طيبة للزوج الآخر.. قال (أندرو) وهو يعاود الابتسام الخبيث:

- «حذار من أن يحلم أحدكم بالسلت!»

- «أنا لا أخاف إلا حين أكون بكامل لياقتي.. أمّا وأنا مرهق فمستحيل..».

ودخل (جون) و(سارة) حجرتهما.. ودخل (أندرو) و(هيلين) حجرتهما.. كان هناك فراش مرتفع عن الأرض ذو أربعة أعمدة.. ومدفأة صغيرة في ركن المكان.. ومرآة.. ومكتبة صغيرة.. ونافذة واربها (أندرو) قليلًا حتى لا يختنقا وهما نائمان..



كان الصندوق قد انفتح ..
ودون وجل امتدت يد (أندرو) داخله ..

وراح يشعل النار في المدفأة، على حين جلست (هيلين) على حافة الفراش تستبدل بثيابها ثياب النوم... لاهثة من البرد انسلت تحت الغطاء السميك؛ عالمة أن لحظات دامية ستمر قبل أن يدفأ الفراش وتدفأ قدماها.. أسنانها تصطك بردًا..

لكنها برغم الضوضاء الناجمة عن هذه الأسنان اللعينة، كانت قادرة على سماع حركة (أندرو) في الحجرة وهو ينزع ثيابه.. يرتدي منامته، ثم ينسل تحت الغطاء جوارها.. صوت المنظار يوضع على المقعد جوار الفراش..

ليلة أخرى تبدأ بالصمت وتنتهي به...

سألته مغمضة العينين والغطاء يكتم صوتها إلى حدٍ ما:

- «(أندي)؟».
- «هم م م؟».
- «لقد كنت تتردد على هذا الكوخ كثيرًا.. أليس كذلك؟».
- «وماذا يدعوك للاعتقاد بهذا؟».
- «الشيكولاتة.. كانت بحالة جيدة.. لا يمكن أن يكون عام قد انقضى عليها هنا..».
اهتز الغطاء بضحكته المكتومة.. وتقلب ليوليها ظهره.. وبعد دقائق غمغم:
- «ملاحظة جيدة.. لكنني لم أضع أية شيكولاتة في هذا الصندوق!.. إنها المرّة الأولى التي أفتحه فيها.. ولم أرد أن أثير هلعكم..!».

* * *

(سارة) و(جون) في حجرتهما...
يداعب (جون) شعيرات لحيته الشقراء (واضح إذن أنه يملك لحية شقراء) ويتأمل وجهه في المرآة..
في الصباح عرفت (هيلين) فحوى المحادثة التي دارت بين الزوجين همسًا على صوت وضوء نيران المدفأة..
قالت (سارة):
ـ «لا أدري.. إن العلاقة بين (أندرو) و(هيلين) ليست على ما يُرام..»
ـ «هذا واضح.. لم يتبادلا كلمة منذ بدء الرحلة..»
ـ «والسبب؟».

- «إن (أندرو) إنسان معقد يا (سارة).. طفولته المليئة بالحرمان والمعاناة جعلت منه مخلوقًا صعب المعاشرة.. صحيح أنه صديقي لكنه كذلك لبضع ساعات كل يوم.. وأنا لا أتصور أن أكون زوجته ليوم واحد..»

***

(هيلين) تعرف هذا عن زوجها..

بعد عام من الزواج تعرف أنه مازال يحاول أن يكون مرعبًا، لأن الرعب يهب المرء القدرة على التأثير في الآخرين... لأن الرعب هو القوة كما خيل له..

إن (أندرو). لم ينضج. بعد.. مازال طفلًا يكشر عن أنيابه في وجوه الأطفال الأصغر منه..، صحيح أنه كان يبدو ناضجًا حينما يكون مع الآخرين.. لكنه ذلك القناع الاجتماعي الذي نرتديه أكثر اليوم وننزعه حين نعود إلى ديارنا...

.ولهذا فهمت ما يعنيه بـ (الرعب) حين تحدث عنه هذه الليلة.. ولهذا - حين حاول إفزاعهم ـ لم ترَ أمامها سوى صبي سخيف يلوح بسحلية في وجه طفلة مذعورة.. كلما صرخت كلما ازداد تلذذًا..

ولأنه صبي سخيف؛ لم يستطع بعد. فهم الزواج.. الشيء الذي يرغم اثنين على تقاسم سقف واحد للأبد... يأكلان نفس الطعام ويشاهدان ذات البرامج ويحلمان

ذات الأحلام.. كأكثر الرجال حسب هذا شيئًا بهيجًا.. وظن أنّ هذا هو ما يرغب فيه حقيقة، لكنه كان: كما قلنا ـ صبيًا سخيفًا لا يفهم كنه ما يريد.. وكان الزواج هو آخر ما يريد.....

ولكن.. هل حقًّا توجد امرأة أخرى؟..

من العسير أن تجيب على هذا السؤال.. فهي قد بحثت بعين أنثى خبيرة عن آثار امرأة أخرى فلم تجد.. وهي تعرف أن إخفاء آثار كهذه شبه مستحيل.. دائمًا ما يكون هناك أثر ما.. مثل رائحة عطر أو قلم أحمر الشفاه أو منديل أو علبة سجائر.. لكنّها لم تجد شيئًا كهذا حين نهضت خلسة بعد ما نام (أندرو).. وراحت تتفقد الحجرة بدقة..

وكان هناك كراسة على رف المكتبة.. فتحتها في حرص لترى ما بها.. فوجدته بخط زوجها..

العنوان يقول (الكلمات)..

إسم غريب!.. هل هو ديوان شعر؟ قلبت الصفحة لترى ما بعدها فوجدت رسومًا بدائية ساذجة تمثل رجالًا يصرخون، وقوارب، ونيرانًا، وذئابًا تعوي..

ووجدت تحت أحد الرسوم تاريخه (١٢/١٠/١٩٦٧) - الرؤيا الأولى - .. إذن هو يكذب بوضوح.. لقد جاء إلى هنا في شهر أكتوبر - منذ شهرين - ورسم هذا.. بالتأكيد لم يأت بالكراسة معه.

في صفحة تالية وجدت صورة فوتوغرافية (أبيض وأسود) لمستنقع كئيب

المنظر.. بالتأكيد هو واحد من المستنقعات المجاورة..
ماذا يقول التعليق؟ (الظهور الخامس لإكليبوس).. التاريخ هو ٦/٨/١٩٦٧...
إنها تذكر هذا التاريخ.. ألم يقل لها: إنّه ذاهب إلى (لندن) لمقابلة بعض المقاولين؟ استغرق هذا أسبوعًا.. ولم يتصل بها هاتفيًا ولو مرة واحدة لأنّه كان هاهنا منهمكًا في دراسة (إكليبوس) هذا..
ولكن من هو (إكليبوس)؟
إن الصورة لا تظهر سوى مستنقع..
ولكنها ـ إذ نظرت للصورة بعناية أكثر ـ رأت في ركنها ظلًا مبهمًا لشيءٍ ما.. تعرفون طبعًا تلك الصور غير الواضحة بتاتًا التي يظهر فيها ما يفترض أنه طبق

طائر أو وحش (لوخ نس) أو رجل الثلوج..
كل هذا يتم على ضوء اللهب المتراقص...
الصفحة التالية ترى فيها صورة عصفور ميت فردت أجنحته وبدا في حال مثير للشفقة..
في الصفحة التالية ترى عصفورًا يلتقط الحب من وعاء صغير.. إنّه ذات العصفور.. إذن هذه الصورة التقطت قبل موته..
لكن العصفور الحيّ كان متسخا بالأوحال..، والتعليق تحت الصورة يقول: (بعد دفنه في المستنقع بسبعة أيام)!.. يكفي هذا..

لا مزيد من هذا الرعب قبل النوم..
أغلقت الكراسة وعادت إلى الفراش مسرعة.. لكنّها حين نظرت نحو (أندرو) وجدت عينيه مفتوحتين...!
كان يرمقها في ثبات...

❋ ❋ ❋

٥ ـ عن (إكليبوس)..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا...

* * *

كان هذا هو اليوم الأول في المفكرة، وهو يوم طويل حقًّا كتبته (هيلين) في أربع صفحات كاملة.. فالمفكرة لم تكن من الطراز المقسم إلى تواريخ..
على أن اليوم الثاني والثالث كانا أكثر مرحًا...

فقد خرجت المجموعة للسير على الجليد وتفقدوا المكان: وتعاون الرجلان على اقتطاع شجيرة شربين صغيرة لتكون هي شجرة (الكريسماس)، ووضعاها بجوار المدفأة.. ثم تعاونت المرأتان على تزيينها بالأجراس والدمى الصغيرة والورق المفضض اللامع...

ولم يفت (سارة) أن تأتي من حقيبتها بدمية (بابا نويل) أو (سانتا كلوز) - بلحيته البيضاء وقلنسوته الحمراء، وتضعها في ركن مهم من قاعة المعيشة..

بعد هذا راحوا يلعبون الورق.. إن. لعبة الـ (جاك) ممتعة حقًّا.. ويقال: إن المرء يمكن أن يلعبها للأبد لو عاش في.سجن. دائم مع آخرين.

لم تحاول (هيلين) أن تسال زوجها عما رأته البارحة.. ولا عن كنه (الكلمات)، فقط انسحبت بضع دقائق لتصعد إلى غرفة النوم لتدون مذكرات اليوم السابق.. ومن المؤكد هنا أن زوجها لا يعرف عن هذه الهواية الشيء الكثير؛ وإلا ما استطاعت أن تتكلم عنه بهذه الحرية المطلقة..

من جديد شعرت بأناملها تدغدغها كي تتصفح (الكلمات) مرّة أخرى..

بيد مرتجفة تناولت الكراسة من فوق رف المكتبة، وعادت تقلب صفحاتها الملأى بالغموض...

فكان أن وجدت هذه العبارات:

مجموعة النداء الأولى:

أرتميس - كاسيس - هرملاكايوس. ثم بيركادوس (٤).

«مجموعة النداء الثانية:

أشيوست ديمترا ـ إرسادوك

(في وجه القمر)

إينياس (تعمل وحدها، دون معين.)»

بعد هذا جاء التحذير من الجهر بهذه العبارات كما ذكرت آنفًا للقارئ........

لم تفهم كنه هذا الكلام، وإن أدركت يقينًا أنه تعويذة تتعلق بقوّة ما من وراء الواقع.. وشعرت بتلك الرجفة تزحف من جذور شعرها حتى أسفل عنقها...

ما الذي يفكر فيه (أندرو)؟.. من هو حقًّا؟..

لا تعرف السبب.. لكنّها شرعت تنقل هذه العبارات إلى باطن غلاف مفكرتها.. كانت تأمل أنها ستعرضها على من يفهم في هذه الأمور عند عودتهم.. خبير في السحر.. أو خبير في (السلت).. أو خبير في شمال (أسكتلندا).. أو خبير مستنقعات.. لا تدري بالضبط.

* * *

مر اليوم الخامس والعشرون بسلام.. ومثله مر اليوم السادس والعشرون...

على أن لنا وقفة معينة مع اليوم السابع والعشرين.

كلا.. لا تتحفزوا يا إخوان.. لم يحدث ما يدعو للرعب.. إن هي إلا ملاحظة بسيطة..

لقد صحا (جون) فجر أمس متوترًا، وأيقظ (سارة) مؤكذا أنه سمع من يطرق باب الكوخ...

ولما لم يكن هناك بالمنطقة سواهم.. ولم يخلق بعد ذلك المخبول الذي يجرؤ على خوض منطقة المستنقعات وحيدًا في الظلام.. بدا الأمر غريبًا..

بعد ثوان سمعت (سارة) ذات الطرقات اللحوح.. وهي تقسم إنها كانت من شخص يستعمل مجمع قبضته في توجيه ضربات حانقة حاقدة إلى الباب..

وتأهب (جون) للنزول ليرى ماذا هنالك.. لكنّ (سارة) توسلت إليه أن يتجاهل الأمر ويعود للنوم.. ولم تكن بحاجة لإلحاح كثير.. لأن (جون) كان من الحكمة بحيث ارتخت قدماه تحته ولم يعد قادرًا على إجبارهما على حمله..

قال لها وهو يعود للنوم:
- «فلنفترض أننا لم نسمع شيئًا..»
- «يبدو أن (أندرو) لم يسمعه..»
- «أراهن على أنه فعل.. لكنه يتظاهر بالصمم مثلنا..».
- «ولو كان هذا عابر سبيل يوشك على التجمد؟»
- «إذن فليتوله الله بعنايته حتى تشرق الشمس..!»
- «قد يكون ضل الطريق...»
قال (جون) وهو يتثاءب:
- «لا أحب أن أجازف بفتح الباب ظنًا أنه عابر سبيل ثم يتضح أنه ليس كذلك!.. هل تذكرين، ما تعنيه.. الطرقات على الباب



وتأهب (جون) للنزول ليرى ماذا هنالك .. لكن (سارة) توسلت إليه أن يتجاهل الأمر ويعود للنوم ..

في قصة (و. يعقوب) الشهيرة (مخلب القرد)؟!»

- «لـ.. لا.. لم أقرأها..».

- «إذن.. أنصحك بقراءتها نهارًا!.»[1]

وعاد يواصل النوم...

في الصباح أخبر (أندرو) بما حدث.. فبدا على هذا الاهتمام، وخرج يتفحّص الباب الخارجي.. ثم إنّه نادى (جون)...

وفي اهتمام أشار إلى آثار وحل على الخشب... وتبادل وصاحبه نظرة.. نظرة لم يدر (جون) معناها..

قال في جديّة:

- «أحسنت ببقائك في الفراش.. فقد كان أحدهم!»

- «أحد من؟»

- «العائدين!.. إنهم يأتون عند الفجر من حين لآخر طالبين المأوى....»
في حنق مذعور صاح (جون):
- «(أندرو)!.. هلا كففت عن هذا الهراء.؟».
أبتسم (أندرو) في غموض.. وغمغم:
- «أنت حر في تصديقه أو عدم تصديقه.. فنحن في بلد ديموقراطي يا صديقي..»
ولقد انتهت القصة عند هذا الحد..
ألم أقل لكم: إنها مجرد ملاحظة بسيطة قد لا يكون ثمّة داع إلى ذكرها؟!

❋ ❋ ❋

ويمر اليومان التاليان دون أحداث جديرة بالذكر..

وفي اليوم الثلاثين من (ديسمبر) وقف (جون) و(أندرو) أمام المكتبة وقد أمسك كل منهما قدحًا من القهوة يرشف ما به في استمتاع....

على كعوب الكتب يمرر (جون) طرف سبابته، وهو يتلو أسماءها بصوت عالٍ.. ثم توقف عند المجلد العتيق متآكل الأطراف.. وتساءل:

- «ما هو (إكليبوس) يا (أندرو)؟.. هل هي أشعار رعوية أو شيء من هذا القبيل؟».

أخرج (أندرو) المجلد من المكتبة.. كان مغطى بالغبار السميك مما يدل على قلة

استعمال حقيقيّة..
فتحه.. ورأى (جون) أوراقًا مصفرة مهترئة متأكلة عليها رسوم تمثل شياطين.. شياطين القرون الوسطى بالذات هزيلة البدن بلحاها المدببة ووجوهها التيسية.. إن إرتباط الشيطان بالماعز كان عميقًا في وجدان رسامي القرون الوسطى..
كانت هناك رسوم لساعات.. وأبراج سماويّة تخرج منها صواعق.. وأشخاص يحترقون في النار بسعادة بالغة.. وأشياء لا تدري كنهها تفعل أمورًا لا تدري ماهي....
الخلاصة أنّ هذا ـ دون شك ـ كتاب سحر من القرون الوسطى.. وليس - بالتأكيد - جديرًا بوضعه في المكتبة.. إن مكانه الطبيعي هو متحف التاريخ البريطاني رفع

(جون) عينًا متسائلة غير فاهمة نحو (أندرو)...

قال (أندرو) وهو يشير إلى رسوم الكتاب:

- «(إكليبوس) هو كيان شيطاني من خرافات القرن الثاني عشر الميلادي، ويقال: إن الإيمان به كان يبلغ مرتبة الدين في هذه الأصقاع..، ولا داعي للقول بأنه كان يسيطر على هذه المستنقعات التي نعيش فيها بالذات.. وكان القوم هاهنا يقدمون له القرابين الآدمية التي يغمرونها في المستنقعات، ثم ينادون هذا الـ (إكليبوس) عن طريق عبارات سحرية معينة.. وكان الافتراس يتم.. وبعده يكتسب ذوو الضحايا قوى غير محدودة.. طبعًا

هي واحدة من الخرافات العديدة غير المتناهية التي تحاصر هذه المنطقة».
تساءل (جون) وهو يعيد الكتاب إلى موضعه:
- «(أندرو)؟»
- «هم م م؟»
- «من أين تجيء بكل هذا؟»
ضحك (أندرو) مراوغا:
- «إنها هوايتي يا (جون.).. لا أترك تاجر كتب قديمة.. ولا مزادًا يبيع صناديق موصدة.. ولا نصابًا يزعم أن لديه مخطوطات قديمة إلا وذهبت إليه وأنفقت نصف راتبي على ما عنده..».
- «وهل رأيت هذا الـ.. الشيطان الافتراضي؟»

- «بالطبع لا.. وإلا ما كنت هنا أثرثر.. إن اقتناء كتاب عن العنقاء لا يعني دائمًا أنك تؤمن بوجودها..».

* * *

كان هذا هو ما دار بين الصديقين، وفيما بعد عرضت (هيلين) ما قيل.. وأدركت أن (أندرو) يكذب.. حتمًا يكذب.. ألم تقرأ في مذكراته أو (كلماته) عبارة (الظهور الخامس لإكليبوس)؟.. وتعرف أنّ هذا تم يوم ٦/٨/١٩٦٧..؟

ولكن لماذا يكذب في هذا بالذات برغم أنه يسره بالتأكيد أن يستغل هذه النقطة لإثارة مزيد من رعب مر افقيه؟

إنها لن تفهم (أندرو) أبدًا.. بالتأكيد هو يزداد غموضًا يومًا بعد يوم.. والجديد هنا هو أنها لم تعد تميل إليه على الإطلاق.. بل هي في الواقع تمقته وتخشاه بشدة...

لكنّ ليس الوقت موائمًا لإظهار هذه العواطف الخاصّة أمام ضيفيها....

* * *

وحينما صحت من النوم في الواحدة صباحًا؛ عرفت أنها لن تجده جوارها في الفراش.. كيف عرفت؟..

هذا سهل.. كل النساء يجدن هذه الفنون التي تندرج تحت الحاسة السادسة والسابعة والثامنة..

من وعلى ضوء اللهب المتراقص في المدفأة؛ رأت مكانه في الفراش خاويًا..

أين ذهب؟.. هل لقضاء حاجة؟.. تدخلت حاستها التاسعة كي تنفي هذا.. إذن أين هو؟.. أحقًا لا تعلمين يا حمقاء؟.. بالتأكيد هو الآن في المستنقعات...!

* * *

٦ - مصيدة عيد الميلاد..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا...

* * *

اليوم هو عيد الميلاد..

حين ينتصف الليل يلفظ عام ١٩٦٧ أنفاسه الأخيرة، على حين تدوي صيحات ١٩٦٨ في غرفة الأطفال بمستشفى الأبدية.. صارت شجرة عيد الميلاد في أبهى صورة، وأضافت (سارة) بعض

تماثيل صغيرة لتعطي انطباع المزود حيث ولد المسيح عليه السلام...

وعلى مقعد خشبي ينذر بالانهيار يقف (أندرو) عاكفًا على تثبيت بعض المسامير ليعلق فوقها خيطًا..، وبالطبع تتدلى الزينات من هذا الخيط...

الكل يعمل.. الكل يشارك.. الكل مرح..

ماعدا ـ تعرفون من - (سندريللا) الرقيقة الحزينة المتشككة الشهيرة بـ (هيلين)...

تجلس في الركن جوار المدفأة تتأمل أظفار يديها في شرود..

* * *

(جون) في المخزن وحيدًا:

يمسك البلطة ويهوي بها فوق قطع الخشب الموضوعة فوق جذع عالٍ متين.. رياضة مرهقة لكنّها جيدة.. إنها خير وسيلة لجلب الدفء في هذا الزمهرير.. لهذا يتمتع الحطابون بصحة هائلة..

هاك!.. تم تحويل قطعة الخشب هذه إلى قطع صغيرة...

والآن يحملها ليضعها في الركن.. يأتي بقطعة أخرى..

غريب هذا الشريط الجلدي الذي يبرز وراء الأخشاب.. متى رآه من قبل؟..

مد يده وجذبه إليه فوجده متعلقًا بشيء ما.. بصعوبة نجح في تحريره.. وجد أنه يد حقيبة.. حقيبة أنثويّة..

تناولها بشيء من حذر وعالج قفلها.. وجد بداخلها بعض أوراق مالية.. وبطاقة هوية.. ماذا تحويه هذه البطاقة؟..

فتاة تدعى (ساندرا بيكيت).. المهنة سكرتيرة - من (جلاسجو) - وهي في السادسة والعشرين من عمرها..

ابتسم في خبث.. إن وجود هذه الحقيبة هنا يعني أنّ هذا الكوخ لم يكن. ديرًا يعتزل فيه (أندرو) العالم.. وخير ما يفعله الآن هو أن يتجاهل الأمر كلية..

فليعد الحقيبة إلى مكانها.. وليبتلع أسئلته العديدة.. وليكن حكيمًا بالقدر الذي يسمح بإخفاء هذه البسمة العارفة من على شفتيه..

وكحطاب محترف بصق على كفيه.. وتناول البلطة وعاد يواصل عمله..

* * *

عند الظهيرة كانت (هيلين) قد وصلت إلى قرارها.

ـ «أريد العودة إلى داري!»

أثارت جملتها جوًا من الوجوم والدهشة.. حتى إن (سارة) كفت عن تزيين شجرة عيد الميلاد.. و(جون) توقف عن رمي الأخشاب في المدفأة واستدار نحوها وهو مازال جاثيًا على ركبتيه..

أما (أندرو) فتصلب والمطرقة في يده، وثلاثة مسامير بعد بين أسنانه.. وانبعثت من عينيه نظرة نارية:

ـ «(هيلين)!.. هل تمزحين؟»

نهضت في حنق، وركلت الأرض بقدمها كطفلة غضبى:



وخير ما يفعله الآن هو أن يتجاهل الأمر كلية .. فليُعد الحقيبة إلى مكانها .. وليبتلع أسئلته العديدة ..

- «أنا لا أمزح.. أريد العودة لداري»
هبط من فوق المقعد.. ولفظ المسامير.. ثم نظر لها بحدة:
- «ما هذا السخف؟.. وفي ليلة الكريسماس التي جئنا خصيصًا من أجلها؟!»
وضعت (سارة) ذراعها برفق حول كتف صديقتها، كأنها تقول (دعونا.. فنحن النسوة يفهم بعضنا بعضًا) وسألتها بحنان:
- «هل ثمّة ما ضايقك هنا يا حبيبتي؟».
- «أريد أن أرحل وكفى...».
دنا منها (جون) بدوره ليقول شيئًا ما.. ولقد فاق هذا كل قدرة إضافية على التحمل.. فها هي ذي تلعب دور الطفلة

العنيدة التي يحاول الجميع إقناعها بالود تارة.. وبالغلظة تارة..

وهنا لم تتحمل أكثر.. انفجرت في البكاء كالصنبور المكسور.. إنها تشعر بالخجل من بلاهتها.. جرت ودفنت وجهها بين راحيتها بينما (سارة) مازالت تلعب دور (فاهمة النساء) و(جون) يكور قبضته في وجه (أندرو) مازحًا:

- «هل أثار حفيظتك؟.. سألقنه درسًا قاسيًا».

أخيرًا تستجمع قدرتها على الكلام.. فتقول والعبرات تشوه كل ما تقول:

- «الأمر هو أنني لا أحب هذا الكوخ.. الشؤم يحيط به.. كل شيء غارربييب هي ي ي ي!».

يتساءل (جون) في حيرة:
ـ «ماذا تقول؟»..
تقول (سارة) موضحة:
- «تقول: إن كل شيء غريب..»
وتعود (هيلين) للكلام:
ـ «أشعر أن كارثة ستحل بنا هنا.. أنا من ذلك واثقة.. إنني أرتجف هلعًا من كل جدار هنا.. وكل باب..»
وتهانفت من جديد:
- «أريد العودة إلى داري ي ي ي ي!».
نافد الصبر أوقفها (أندرو) بيده.. ودس يده الأخرى في جيبه.. وغمغم:
ـ «حسن.. تريدين هذا.. لك هذا..».
صاح (جون) غير مصدق:

- «(أندرو)!.. عم تتكلم؟.. إن العطلة لم تبدأ بعد.. ثم إننا غير مستعدين لقضاء العيد في ديارنا..».

- «أعرف هذا..»

وأردف وهو يضع قلنسوته المعلقة على المشجب فوق رأسه:

- «هي لا تريد الكوخ.. ليكن.. سأعود بها للدار.. ثم أرجع لكم.. هذا لن يستغرق وقتًا كثيرًا.. سأكون هاهنا قبل منتصف الليل.. وسأحضر المزيد من الشراب والأطعمة..»

هتفت (هيلين):

- «لكني أرغب في أن نعود جميعًا.. معًا!».

ـ «أنت حرة يا (هيلين) في البقاء أو العودة.. لكنك لست حرة في إفساد النزهة على ضيفينا.. وأعتقد أننا جميعًا راغبون في البقاء..».

هنا بدورها هتفت (سارة):

ـ «لن يكون للبقاء هنا طعم دون (هيلين).. إنني أفضل أن نرحل جميعًا..»

قال (جون) في ضيق:

ـ «ربما كان (أندرو) على حق.. إن الرحلة شاقة.. وقد فرغنا بصعوبة من إعداد هذا الكوخ...».

وهكذا....

تقرر أن ترحل (هيلين) وزوجها، على أن يعود هذا الأخير سريعًا لبدء الحفل.. كان الضيق يملأ الوجوه وبدا أن التهذيب

هو الشيء الوحيد الذي يمنعهم من توجيه السباب إلى هذه (المصيبة) المسماة (هيلين)، والقادرة على إفساد كرنفال كامل من كرنفالات (أمريكا الجنوبيّة) بكل هذا الذعر الهستيري.

وفي أسف وقف (جون) و(سارة) يرمقان السيارة وهي تتحرك ببطء فوق الثلوج.. بداخلها (أندرو) خلف عجلة القيادة و(هيلين) جواره ترمق الجليد خارج النافذة، ولا تنبس ببنت شفة..

رفع (أندرو) ذراعه مودعًا.. فصاح (جون):

- «الليلة يا (أندي)!»

- «الليلة..»

- «لا تتأخر كثيرًا.. وابق حيًّا.. وإلا متنا متجمدين هنا!»

- «ادع الله أن أتذكركم..»

وغابت السيارة وراء منحدر الثلوج..

* * *

ومن بعيد يتبدى الجسر لهما..

جذب (أندرو) ذراع السرعات، فأوقف السيارة.. ثم فتح الباب.. وترجل ليتفقد الجسر كدأبه..

دنا منه.. وانحنى يتفحّص الأخشاب..

بعد هنيهة رأته (هيلين) يعود إلى السيارة، ونظرة جادة ترتسم خلف عويناته المنهكة..

قال لها دون أن ينظر إليها:

- «(هيلين).. أريد منك أن ترى هذا معي..»

نزلت من السيارة.. ومشت وراءه بحذر فوق الجليد.. بخار الماء يخرج من فيها كبالونات الكلام في القصص المصورة.. وكانت تلهث...

أخيرا ترى ما كان يعنيه...

كانت أخشاب الجسر مهشمة في مواضع عديدة.. بعضها لم يعد له وجود.. وبعضها تدلى ما بقي منه متعلقًا بجانب الجسر الفولاذي...

نظرت له غير قادرة على استيعاب ما يعنيه هذا:

- «من فعل ذلك؟»

- «بالتأكيد ليست أمي العجوز..»
- «ولـ.. لكنّ.. هذا يعني.....»
قال وهو ينهض من على ركبتيه:
- «نعم.. يعني أننا صرنا سجيني هذا الكوخ..!»
كانت عبارته الأخيرة مكتوبة في بالون كبير يوشك على الرحيل إلى بعيد.. إلى الغيوم.....

❋ ❋ ❋

٧ - وكانت البداية..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا.. إنني لا أرى وجهه....

* * *

لنا الآن أن نتخيل الموقف كالآتي:

(هيلين) صعدت وثبًا إلى غرفتها دون أن تنطق كلمة واحدة، حيث ارتمت على الفراش بثيابها.. منبطحة على بطنها، راحت تدون كل الأحداث الأخيرة في مفكرتها التي هي بين أصابعي الآن.. بخط



كانت أخشاب الجسر مهشمة فى مواضع عديدة ..

عجول يفتقر للنظام..
وياله من خط..!...
كل حرف فيه يضج بالهستيريا والهلع وخشية الغد.
(أندرو) في الطابق الأسفل يجلس على الأرض أمام المدفأة محاولًا شرح ما حدث للزوجين غير الفاهمين..
في غباء يصغي (جون) و(سارة) لخلاصة الموقف.. لقد تهدم الجسر - صلتهم الوحيدة بالعالم الخارجي. والفاعل مجهول.. لكنه - حتمًا - ليس الريح ولا الذئاب..
- «ومن يفعل شيئًا كهذا؟»
- «لا أدري...».
- «ظننت المنطقة معزولة حقًّا..»

- «هي كذلك للأسف..»
- «والحل؟.. لن نموت جوعًا هنا بهذه البساطة»
- «موت؟»
هتف (أندرو) بهذه الكلمة في شيء من الاستخفاف.. ثم ضحك ضحكة عصبية:
- «من تحدث عن الموت؟.. كل ما علينا هو عبور المستنقعات راجلين.. وسنجد القرية في الجانب الآخر!».
نظر له (جون) في غباء:
- «قلت: إن المستنقعات خطرة..»
- «لمن يجهلها نعم.. أمّا أنا فأعرف كل شبر فيها.. ولن نحتاج إلا إلى أربع ساعات أوست..».

تأمل (جون) النار المتراقصة شارد الذهن لبضع دقائق.. ثم قال وهو يشعل لفافة تبغ برغم كونه غير مدخن:

- «هذا لا يروق لي يا (أندرو).. أرى أن الحكمة تقضي بأن يحاول أحدنا - أو جميعنا - عبور الجسر على الأقدام.. ربما كان هذا عسيرًا.. لكنه ليس مستحيلًا مع استعمال الحبال.. وحين نصل إلى الجانب الآخر نقطع مسافة طويلة. لكنّها آمنة - حتى نصل إلى مكان مأهول..».

- «سخف!» - قال (أندرو) محنقًا - «لماذا نلجأ إلى المخاطرة مادام لدينا حل سهل تنعدم فيه درجة المخاطرة إلى صفر؟.. ثق بأنني أعرف ما أقول..»

هنا تدخلت (سارة):

- «على كل حال.. نحن لن نقدم على شيء الآن.. لن نتحرك إلا في ضوء النهار.. فلماذا لا نترك النقاش الآن ونحتفل معًا بالكريسماس كما أزمعنا؟»

- «يا له من احتفال!».

الواقع أن عقدة عتيقة بدأت تتحرك في نفس (جون) كي تسلبه الراحة واطمئنان البال.. عقدة الحصار.. وهي نوع من أنواع عقدة الأماكن المغلقة التي - كالعادة - يسميها الأطباء النفسيون اسمًا لاتينيًا متحذلقًا (كلوستروفوبيا).. لهذا - يمكننا الفهم - لم يكن (جون) يشعر بأي نوع من الارتياح وإن لم يصرح بهذا...

* * *

الآن يبدأ الاحتفال...

غريب هو الإنسان.. برغم هذا الجو الثقيل من الخطر الجاثم على الأنفاس؛ فإن النسيان بدأ يعابث النفوس.. وشيئًا فشيئًا بدأ جو من المرح...

كانت (هيلين) جالسة معهم؛ فقد صعدت لها (سارة) وأصرت على أن تشاركهم الاحتفال...

وجلست هذه الأولى واجمة ساهمة كأنها تشارك في مأتم صديق عزيز...

إلا أنها بدأت تبتسم أحيانًا.. ثم تبتسم كثيرًا.. فتضحك.. فتقهقه..

وبدأ الغناء الجماعي بطيئًا مترددًا.. ثم ازداد علوًا.. وازداد مرحًا..، وتدخلت

الكؤوس التي جرعوها لتجعل كل ملحوظة سخيفة تبدو مضحكة جدًا إلى حد ذرف الدموع من العيون.

ودق (جون) على المائدة ليصاحب الإيقاع.. والواقع أنهم قد عملوا كل ما بوسعهم كي ينسوا عزلتهم الرهيبة.. والمستنقعات الجاثمة ككابوس ثقيل على بعد أمتار من مجلسهم هذا..

وفي منتصف الليل لثم كل زوج زوجته وتمنى لها عامًا جديدًا سعيدًا.. صادقًا أو غير صادق..

وهنا نهض (أندرو) ليقف كأنما يؤدي دورًا في مسرحيّة، وصاح بلسان ملتو قليلًا:

ـ «والآن.. فلنؤد التحية له..»

- «التحية لمن؟»
نظر للسقف.. وهتف:
- «لسيد هذه المستنقعات.. الذي نحن في ضيافته الآن.. والذي ينتظر طوال الوقت..»
ودون سابق إنذار راح يهتف بصوت جهوري:
- «أرتميس - كاسيس - هرملاكايوس - بيركادوس - بيركادوس - بيركادوس - بيركادوس!».
تبادل (جون) وزوجته نظرة ساخرة.. ما الذي يقوله هذا الأحمق؟ وانفجرا يضحكان..
- «(أندرو) يا عزيزي.. هل أصابك الخبال أخيرًا؟ أم تقمصتك روح عراف

إغريقي؟»
لكنّ (هيلين) - التي لا يخفى عليك أنها قد أفرطت في الشراب ـ لم تحب كثيرًا ما تسمع.. وبدا لها مألوفًا إلى حدٍ ما...
هنا كان (أندرو) مازال يردد:
ـ «أشيوست ديمترا ـ إرسادوك»..
قالها وهو يدور بجذعه في الاتجاه الذي يفترض أن القمر بازغ فيه..
صاحت (هيلين) واهنة الأعصاب:
ـ «امـ.. امنعوه.. إنّه ي.. يناديه..».
- «ينادي من؟».
لم تستطع مواصلة الكلام، وراحت تضحك تلك الضحكة السخيفة الثملة.. ثم توسدت ذراعيها وغرقت في نعاس طويل عميق..

على حين واصل (أندرو) الكلام:
- «إينياس!..».
وقف لحظة يتشمم الهواء.. ثم جلس منهكًا كأنما فرغ من جهد طويل مضن.. وبيد مرتجفة جرع بعض الشراب..
بعد ثانية تعالى صوت التصفيق من كفي الزوجين..
وابتسم (جون) قائلًا في مرح:
- «لقد راق لي كل هذا.. هل هو جزء من مسرحيّة لـ (سوفوكليس)؟».
- «لم تكن هذه لغة يونانية..»..
- «إذن ما هي؟».
- «لا أدري.. ربما هي لغة (السلت) القديمة..»
- «وماذا تعني؟»

- «ربما هي نوع من التحية لسيد المستنقع.. إنها تضفي إثارة غامضة على الجو.. ألا ترى هذا معي؟».

- «..............!»

وهنا تصلبت (سارة) واتسعت عيناها..

إن النساء - بطبعهن - قاتلات قصص محترفات، وهن بهذه الحركات الهستيريّة المفاجئة من نوع (أنصت!) يجدن تشتيت أية محادثة مهما كانت أهميتها..

ماذا سمعت إذن يا أخت (سارة)؟

- «خيل إليّ أنني سمعت صوتًا من ناحية المستنقعات!»

- «هذا محض خيال..»

- «عجبًا... أوشكت أن أقسم على هذا..»

* * *

حينما تثاءب الجميع بدا واضحًا أن نهاية الأمسية قد جاءت..

وكان على (أندرو) أن يحمل زوجته حملًا إلى الفراش في الطابق الثاني، لأن المسكينة بدت كأنما لا توجد عظمة واحدة متصلة مع أخرى في جسدها..

قبل أن يغلق باب الغرفة تمنى للزوجين (ستوكلي) ليلة هادئة، وعاما جديدًا سعيدًا..

* * *

غرق (جون) في نعاس عميق جوار (سارة)..

لكن - كما نتوقع - ظل ذلك الجزء الذي لا يهمد ولا ينام في عقله يعمل طوال الوقت..

كان هذا الشيء يحلل ويفند ويستخلص النتائج..

(إكلييبوس) - التعويذة - الصندوق - قرعات على الباب - الجسد المحطم - المستنقعات - هناك من دخل الكوخ.

ثم الحقيبة في المخزن.. وفتاة اسمها (ساندرا)..

لكن لحظة.. الفتاة لا تترك حقيبتها أبدًا للذكرى وبها بطاقة هويتها.. كيف لم يخطر له هذا؟.. أي غباء؟..

لا تترك الفتاة حقيبتها أبدًا إلا للص حقائب.. أو فرارًا من خطر داهم...

وبالطبع..
تترك الفتاة حقيبتها في المكان الذي تموت فيه!..
....

❋ ❋ ❋

٨- لعبة الأهوال..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا.. إنني لا أرى وجهه.. ولا أتمنى أن أراه...

* * *

وحينما نزل (جون) إلى الطابق السفلى في الصباح؛ وجد أن (هيلين) هناك.. كانت قد استيقظت مبكرًا وجلست تدون بعض الكلمات في مفكرتها..

أثار دهشته أنها أفاقت بهذه السهولة من إعياء الأمس.
كما أثار دهشته أنه فعل نفس الشيء..، وتأمل وجهها..
كان شعرها منتثرًا والإرهاق محفورا على ملامحها.. وثمّة انتفاخان تحت عينيها..
- «أين (أندرو)؟.. أ.. صباح الخير أولًا».
- «صباح الخير.. مازال غافيًا..»
- «(سارة) كذلك..»
كان أمامها وعاء كبير يتصاعد البخار منه وقدح.. ولم يكن في حاجة لسؤالها عما يحويه الوعاء.. فالقهوة تنادي من يطلبونها دون كلمات.. وهو كان يعرف أنها الأمل

الوحيد له في البقاء حيًا مع كل هذا الصداع.. مد يده وصب بعضها لنفسه وجرع جرعات متلاحقة..
كانت (هيلين) تمسك القلم بيدها اليمنى، بينما لفافة التبغ تلفظ آخر أنفاسها في يدها اليسرى، وقد أوشكت أن تحرق أصابعها.. وتناثر الرماد على المنضدة وفوق ثياب (هيلين).. فمد يده وانتزعها ورماها بعيدًا..
تبادلا النظرات دون كلمات لدقائق.. لكنه لم يفهم قط ما تعنيه بهذه النظرات.. ماذا تريد قوله؟..
بعد هنيهة غمغمت...
- «(جون).. أنا خائفة!»
- «أنا كذلك..»
ثم أردف وهو يرمقها في ثبات..

- «إن زوجك ليس على ما يرام..»
- «هذا هو بيت القصيد..»
وفي اللحظات التالية تبادل الاثنان خبراتهما.. حكى لها عن كتاب (إكليبوس) وعن (ساندرا) والطرقات الليلية..
وحكت له عن كتاب (الكلمات) والخروج الليلي غير المبرر لـ (أندرو).. والشيكولاتة التي يزعم أنه وجدها خطأً..
وعن.. وعن..
بعد دقائق سألها (جون) وهو يصب المزيد من القهوة:
ـ «ما الذي نستخلصه من كل هذا؟»
- «لا أدري...»
ـ «إن زوجك ـ أكررها - ليس على ما يرام.. إما أنه يعبث بنا بغرض إثارة

الرعب السادي الأبله في نفوسنا (وأنا أعترف أنه نجح في ذلك كثيرًا).. وإما هو فعلًا يستخدمنا في إحياء تعويذة سحرية عتيقة!»

- «ولماذا الآن بالذات؟»

- «من يدري؟ كان هناك من سبقنا إلى هذا في هذا الكوخ بالتأكيد.. هل نسيت (ساندرا)؟ (ساندرا) هذه إما حية ترزق الآن (لكنّها ترتجف هلعًا).. وإما هي ميتة.. ميتة.. وهذه المستنقعات تسمح بكل شيء..».

حاولت سد فمه بيدها كي لا يتكلم أكثر..

- «(جون).. رحماك لا تثر هلعي..»

- «إن ما أعنيه من كل هذا هو أننا يجب أن نعود إلى ديارنا.. الآن.. وبالتأكيد عن

طريق الجسر.. سيكون هذا عسيرًا لكنه ليس مستحيلًا..».
- «لن يقبل (أندرو)..»
- «يجب أن يفعل.. وإلا فنحن ثلاثة ضدّ واحد..»
إذا كان يحبّ المستنقعات فليقطعها وحيدًا..
ونهض في حماس:
- «سأصعد لأستعد أنا و(سارة).. وعليك أن تستعدي أنت بدورك.. سنترك متاعنا هنا فلن نأخذ معنا سوى الحبال.. ومحراكي النار الخاصين بالمدفأة..»
- «ليكن..»

* * *

والتقيا في الطابق الثاني وقد غادر كل منهما حجرته ملهوفا مذعورًا.. فما إن رأى الآخر حتى صاح:

- «(سارة) ليست في الفراش!»

- «و (أندرو) ليس في الفراش!»

- «هل فتشت المكان جيدًا؟»

- «لا توجد مخابئ كثيرة فيما أظن..»

لكنهما راح يفتشان جيدًا.. تفقدا كل ركن وكل موضع. في الكوخ وفتح المخزن وكل باب موصد.. لكنّ لا أثر لـ (سارة) ولا (أندرو)...

فقط حين خرجت (هيلين) من الكوخ رأت حبلًا سميكًا ينزلق من نافذة غرفة (جون)

و(سارة) إلى أسفل.. وفي نهايته وجدت عقدة تدلّ على أن شيئًا كان متعلقًا به..

وعلى الجليد ترى آثار أقدام.. قدمين في الواقع لا أكثر..

ولو كان من يرى الأثر هنديًا متمكنًا من فنه لقال: إن صاحب الأثر كان يحمل شيئًا ثقيلًا على كتفه، وربما قال: إنّه يرتدي العوينات..

قال (جون) وهو يتأمل الآثار ويعابث لحيته:

- «الأمر واضح.. هو خطفها..!.. انتهز فرصة جلوسنا نتحدث بالطابق السفلي وربطها إلى جبل أدلى به من نافذة غرفة نومنا.. ثم هبط بدوره على ذات الحبل إلى أسفل.. وحملها مبتعدًا..»

- «وكيف لم تشعر (سارة)؟»
- «من يدري؟.. ربما خنقها أو افقدها الوعي.. وربما هو شيء دسه في شرابها أمس..، وأحسبه نهض من الفراش فلم يجدك.. وهبط في الدرج بحذر ليسمع طرفًا من محادثتنا.. عندئذٍ اتخذ قراره..»
- «ولماذا يفعل ذلك؟»
هزّ كتفيه في عصبية:
- «لا يمكن معرفة منطق المجانين.. وزوجك مجنون بلا شك.. ربما هي ذاهبة لملاقاة مصير (ساندرا).. وربما هو يريد أن يجبرنا على دخول المستنقعات..».
كان يتكلم وهو يمشي عائدًا إلى الكوخ.. ورأته (هيلين) يلف على ذراعه حبلًا..

ويمسك بالسلاح الوحيد المتاح هاهنا: محراك النار..

- «ودعيني أصارحك أنه لو كان يبغى (جر رجلنا) إلى المستنقع فقد نجح!.. أنا ذاهب إلى هناك!..».

ومد يده فتناول سكينًا كبيرًا من على المنضدة دسه في نطاقه.. وقال:

- «(هيلين).. ستغفرين لي ذبح زوجك العزيز أليس كذلك؟.. إننا جميعًا نرتكب حماقات..»

- «هـ.. هل.. ستـ.. تفعل ذلك؟»

- «لو كان قد آذى شعرة واحدة من رأسها.. والآن هل تؤثرين البقاء أم الذهاب معي؟»

تبقى في هذا الجحيم؟ ما أسخف السخف!

- «حتمًا سأذهب معك!»

* * *

في الخارج يتصاعد بخار الماء من الأفواه - من جديد - كبالونات الكلام في القصص المصورة..

تلهث (هيلين) وهي تنقل قدميها فوق الجليد الزلق على الأرض، وقد دست يديها في سترتها الجلدية المبطنة بالفراء.. ويدها اليسرى تعتصر مفكرتها في عصبية.. لقد صممت على أن تواكب الأحداث بدقة تامة كتابة..

اليوم هو أول أيام العام ١٩٦٨..

كيف نسيت ذلك؟.. لقد جرفتها الأحداث في تيارها، لكنّ العام الوليد يبتدئ بداية غير مشجعة..

وأمامها يمشي (جون) فاردًا قامته الفارعة (إذن قامته فارعة) وشعره الأشقر يتطاير في الهواء البارد.

ومن بعيد تنتظر المستنقعات..

❋ ❋ ❋

اللعنة!.. إنها الرابعة بعد منتصف الليل يا رفاق! لم يذكرني أحدكم أن أخذ جرعة المضاد الحيوي في الثالثة كما طلبت منكم مرارًا.. يا لكم من قساة!..

لحظة حتى أملأ كوب الماء.. ها هي ذي (الكبسولة).. لماذا يسمون المضادات الحيوية هذه الأيام بهذه الأسماء العجيبة التي لا تعيها الذاكرة؟ في شبابي لم يكن هناك سوى (السلفا) و(البنسلين) و(الكلورامفنيكول).. و.. جلوب جلوب**!**..

بالشفاء يا (رفعت) يا أظرف شيوخ الأرض وأذكاهم..

والآن نواصل السرد.. فقط ذكروني أن الجرعة التالية هي في التاسعة صباحًا.. لن أسامحكم لو نسيتم.

❋ ❋ ❋

أين كنا؟..

آه!.. (جون) و(هيلين) قد وصلا إلى المستنقعات..
تقول (هيلين) في عبارات مقتضبة: إن المستنقعات كانت كئيبة المنظر.. ممتدة إلى ما لا نهاية في ظل الأشجار العجوز المحيطة بها، وكانت هناك تجمعات جليدية خادعة تسبح على سطح المياه الآسنة.. مما يجعل محاولة السير أقرب إلى الانتحار..، وإن كانت أبخرة غاز (الميثان) منعقدة فوق المياه مما يدل على أنّ هناك حياة عضوية من نوع ما في هذا المكان الرهيب..
نظر لها (جون) في قلق.. وغمغم:
- «سيكون هذا عسيرًا..»

وبطرف لسانه الأحمر بلل شفته السفلى (إذن نحن نعلم أن لسانه أحمر).. وأردف:

- «تمشين خلفي إذن.. سأتحسس كل موطئ قدم بمحراك المدفأة.. واحرصي على عدم الانزلاق..»

- «وإذا جاء الليل؟»

غمغم في نفاد صبر:

- «سنعود.. ونكرر البحث غدًا...»

- «لكننا سنضل الطريق هنا.. إنها مصيدة حقيقيّة!»

أعاد تثبيت القفاز على كفه.. وقال في عصبية:

- «حقًّا لم أعد أعرف ما ينبغي وما لا ينبغي.. بمقدورك العودة لو أردت..»

- «هذا لن يكون..»

- «إذن.. الصمت الصمت!»

* * *

واستمرت المسيرة الحذرة فوق الأراضي الصلبة التي تفصل بين شبكة المستنقعات وبعضها..

إن الرؤية متعذرة على بعد عشرة أمتار بسبب البخار اللعين الذي يملأ المكان.. بخار أو ضباب لا يهم.

المهم أنه رديء..

وفجأة تصلب (جون)..

انحنى على الأرض والتقط شيئًا ما..

كان هذا الشيء كراسًا تلوث بالوحل والبلل.. لكنّ عنوانه ظل قابلًا للقراءة..

كان عنوانه هو (الكلمات)..

❋ ❋ ❋

٩ - أسطورة رعب المستنقعات..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا.. إنني لا أرى وجهه ولا أتمنى أن أراه..، لكنه ملوث بالأوحال..

❋ ❋ ❋

- «إذن مرّ (أندرو) هنا.. لكني لا أرى آثار قدميه..».

قالها (جون) وهو يتفحّص الجليد بعناية...



وفجأة تصلب (جون) ..
انحنى على الأرض والتقط شيئًا ما ..

وبلمح البصر نظر إلى غصون الشجرة فوق رأسيهما.. لقد خطر له أنّ هذا قد يكون كمينًا من (أندرو).. لكنّ المذكور لم يكن هناك.. فأطلق (جون) زفرة..

قالت له (هيلين) متوسلة..

- «أريد الجلوس.. خمس دقائق لا أكثر..».

- «ليكن.. ما دمنا في الطريق الصحيح..».

جلست مريحة ظهرها إلى جذع الشجرة، وأشعلت لفافة تبغ.. ثم أخرجت مفكرتها وراحت تدون الأحداث الأخيرة بسرعة هستيرية..، قال في تهكم:

- «لم أر قبطان سفينة حريصًا كل هذا الحرص على تدوين مذكراته..»

كانت تضم فخذيها إلى صدرها حيث جلست، متخذة من ركبتيها منضدة تدون عليها.. ولم تصغ جيدًا إلى ما قال إلا حين فرغت من الكتابة..

عاد يسألها:

- «ما كل هذا الحرص على تدوين المذكرات؟»

- «لا أدري.. ربما هي رسالة أريد تركها لمن يجد جثتينا!».

- «أمّا هذا فلا.. إن المفكرة ستضيع للأبد في المستنقع ولن يجدها أحد..».

وانتظر أن تقول شيئًا.. لكنّها ظلت شاردة.. ثم غمغمت وهي تتأمل حلقات الدخان...

- «لماذا تغير هكذا؟»

- «من؟»
- «(أندرو) طبعًا..»
قال لها وهو يمد ساقيه أمامه...
- «الأمر واحد من اثنين.. إما أنه مريض نفسيًا تفاقم مرضه لسبب لا أدريه، وإما أنه ضحية نوع من الاستحواذ الشيطاني.. وهو شيء لا أستبعده وسط كل هذه التعاويذ واللعنات والسحر القديم..».
ثم نظر لها في تركيز.. وأضاف:
- «لن يكون هناك فارق كبير في حالتنا هذه.. فأنا حين أقتل كلبًا هائجًا لا أهتم كثيرًا بمعرفة هل هو مسعور أم غاضب فقط..»
وأردف وهو ينهض:

- «والآن.. هيا بنا.. قبل أن تدمن مفاصلنا الراحة أو تتحول إلى لوحي ثلج حيث نحن..»

معًا واصلا السير بين المستنقعات..

لا صوت هناك سوى صوت لهاثهما.. وخطواتهما المتعبة المتعثرة فوق الجليد الهش...

فجأة يتصلب جسد (هيلين) وتمسك بذراع (جون) في عصبية.. وتشير إلى المستنقع..

على الماء المتجمد يرى (جون) طرفًا من ثوب.. ثوب يعرفه جيدًا لأن (سارة) كانت نائمة به أمس!

- «يا للسماء!»

صرخ في هستيريا، واندفع نحو المستنقع..

لكن (هيلين) ظلت متشبثة بذراعه.. وهتفت مجدرة:
- «حذار يا (جون.)!.. ستهوي هناك..»
كان يعرف جيدًا أن السقوط في هذا المستنقع يعني النهاية، لأن الأوحال تنزلق تحت قدميك إلى ما لا نهاية، وتغدو محاولة الوقوف فيها مستحيلة..
إن للأوحال قوة تفريغ غير عادية، حتى لتشعر أن وحشًا عملاقًا يبتلعك إلى أحشائه.. ومهما تشبثت فلا جدوى..
حقًا يعرف كل هذا لكنّ ما العمل؟
هل يترك زوجته ـ أو جثتها - عائمة هكذا وسط الأوحال؟
أضف لهذا أن (سارة) شابة وهو لم يملها بعد.. يعني هذا أن فقدها مازال يمثل

خسارة له..
وقف يحاول مد محراك المدفأة إلى أقصى امتداد له.. حتى تمكّن من لفّ طرف الثوب حول طرفه.. ثم راح يحاول جذب الثوب نحوهما..
كان الثوب خاليًا.. لا يدري أهذا من حسن حظه أم سوئه؟
لو كانت (سارة) بداخله لكانت جثة هامدة.. لكنّ معنى أنها خارجه هو أن شيئًا ما حدث لها..
قالت (هيلين) في توتر:
- «على الأقل هي مازالت حـ....»
صفعة هائلة انهالت على خدها.. فتجمدت الدموع على عينيها ولم تجد الكلمات لتتساءل عن السبب..

قال لها (جون) وعلى وجهه تعبير وحشي:
- «لو أنّ مكروهًا أصاب زوجتي فلسوف أفعل ما هو أسوأ من ذلك لزوجة (أندرو).. هل تفهمين ما أعنيه؟!»
لم ترد لأنـّها ظلت واقفة تداري وجهها..
حتى أنت يا (جون) صرت خطرًا داهمًا.. يا لك من أحمق!.. تحسب أن (أندرو) يهتم لحظة لو وجد جثتي مشنوقة في شجرة أو ممزقة إربًا.. إن الأمر لا يعنيه أبدًا..
دقائق عسيرة مرّت بهما، ثم قال (جون) بصوت مبحوح:
- «اغفري لي.. ما كنت أتحدث إلا كذبًا.. لقد فقدت التحكم في أعصابي تمامًا..»
ابتسمت بركن فمها الأيسر قائلة:

- «أوه.. أنا مثلك.. فلننس الماضي..»
لكنّها كانت تعرف أنها لن تنسى..
من الذي ابتكر الصفع؟ من العبقري الذي عرف أن مركز الكرامة يقع تشريحيًا تحت الخد؟ بحيث تشكل الصفعة ضربة مركزة إلى كرامة المرء؟
وتمنت أن تركله في مؤخرته لتشفي غليلها.. لكنّها لم تجرؤ على ذلك قط..، الموقف لا يسمح بالانتقام...
ومعًا يواصلان السير بين المستنقعات اللعينة..
لاهثًا قال (جون) وهو يتحسس مواطئ قدميه:
- «أعتقد أنني كونت فكرة جيدة عما ينتويه زوجك.. إن الرجل يؤمن بـ

(إكليبوس) شيطان المستنقعات مثله مثل كل شيء آخر اعتقد (السلت) به وصدقه زوجك..، وكما قال لي: فإن القوة المطلقة تنبع من غمر الضحايا في المستنقع من أجل (إكليبوس).. وأحسب (أندرو) قد مارس هذا الطقس شبه الديني مرارًا.. والفتاة (ساندرا) هي دليل على أنّ هناك آخرين.. استدرجهم (أندرو) إلى المستنقعات وغمرهم فيها، لابد أنّ هناك نداء معينًا يخبر (إكليبوس) أن العشاء معد.. وأعتقد أنّ هذا هو سر العبارات الغامضة التي رددها البارحة فلم نفهمها..».

وبلل شفتيه بلسانه وأردف:

- «يبدو أن القرابين الفردية لم تكن مجدية.. هنا فكر (أندرو) في تضحية جماعية (دسمة) تتكون من زوجين وزوجته هو نفسه الخاصّة.. أعتقد إذن أنه تخلص من - أو ينوى التخلص من - (سارة).. وبعدها يجيء دورك فدوري.. هذا سهل وهين عليه.. فهو يجيد قواعد اللعبة.. نحن نعبث هاهنا وفقًا لشروطه وعلى أرضه..».

- «وعندئذٍ يتحرك (إكليبوس) هذا؟»

- «لا أعتقد في وجود (إكليبوس) لحظة.. إن (إكليبوس) هذا لا يمثل سوى نفسية زوجك المعقدة.. فقط في عقل (أندرو) توجد مستنقعات متشابكة يسيطر عليها مسخ جائع يطلب القرابين..»

هنا توقفت (هيلين) وللمرة الأولى لاحظت..
سألها وقد لاحظ أنها لم تعد تتبعه..
- «هل حدث شيء ما؟»
قالت بصوت متحشرج:
- «لقد زحف الليل..!»

* * *

ويمر الوقت..
ومع مروره تزداد صلابة وعناد هذا العدو الحاقد: الظلام.. إنّه لا يتعب ولا يترك ركنًا في المستنقعات إلا ويرمي عليه عباءته الزرقاء السميكة..

بعد دقائق ستتحول العباءة إلى اللون الأسود، وستصير الرؤية متعذرة... بل مستحيلة..

- «فلنرجع يا (جون)..»

- «لم يحن الوقت بعد يا صغيرة..»

- «إننا ننتحر.. ولا توجد مبررات كافية..»

كان يحتفظ في جيبه بكشاف صغير، أخرجه.. وأضاءه.. إضاءة لا بأس بها لكنّها غير كافية كمًا ولا كيفًا.. وهو أحمق إذا ظن لحظة أنه قادر على مسح المستنقعات بهذا الضوء الذي لا يكفي لفحص لوزتي طفل..

- «فلنعد يا (جون) أرجوك..»

- «إذا شئت تستطيعين العودة..!»

نظرت وراءها.. إلى كل هذا الظلام الرابض ككابوس تحت غصون الأشجار.. إلى كل الأميال التي اجتازاها منذ الصباح.. وأدركت أنها لن تعود أبدًا..

قشعريرة باردة سرت عبر عمودها الفقري.. على الأقل مع (جون) هي لا تعرف كيف ولا متى ستموت.. أمّا وحدها فهي تعرف أنها ستموت غرقًا في المستنقع بعد خمس دقائق، أو. هلعًا بعد ساعة..

واصلا المسير.......

كانت الخطوات قادمة على بعد عشرة أمتار..

سمعتها وسمعها (جون) في اللحظة ذاتها..

* * *

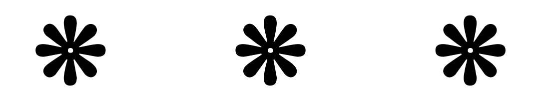
نظر لها نظرة ذات معنى، وإلى فمه رفع سبابته يأمرها بأن تصمت.. وأطفأ الكشاف ووضعه على الأرض الجليدية..

وعلى الأرض جلسا يترقبان..

كان المستنقع هادئًا بمنظره الخادع، يمتد إلى مسافة عشرين مترًا لو أنّ حاسة المسافات عندها صادقة..

وبرغم الظلام كان هناك ضوء فوسفوري خافت يغلف المكان.. هي ظاهرة طبيعية قرأت عنها ثم نسيت كل شيء.. التخمر أو الكهرباء الاستاتيكية لا تذكر بالضبط.. يومًا بعد يوم تدرك أنها لم تحتفظ بشيء

مما تعلمته طوال حياتها سوى القراءة والكتابة..
لسوف تراجع هذا كله فيما بعد.. فيما بعد..
أما الآن فهي ترى من يمشي على الناحية الأخرى من المستنقع!
وتنظر إلى (جون) فتراه يرمق المشهد في انبهار.
برغم الظلام يمكنها أن تتبين حدود هذا الشيء أو الشخص الذي يمشي هناك في ثقة، كأنما التعثر في الأوحال أمر مستحيل الحدوث..
الشعر المنسدل على الظهر.. هذا القوام..
إنها (سارة)! من غيرها؟



١٠ - الفصل الختامي..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا.. إنني لا أرى وجهه ولا أتمنى أن أراه.. لكنه ملوث بالأوحال وله رائحة الموت ذاته..

* * *

صرخ (جون) في هستيريا:

- «(سارة)!»

ووثب على قدميه جاريًا نحو الفتاة..

لكن (هيلين) جذبته من ذراعه في حزم.. وهمست:

- «(جون).. لا تكن أحمق.. ستسقط في الأوحال»

قال بحماس مجنون:

- «لكنّها مازالت حية.. حية!»

همست من جديد في حزم:

- «لا أدري.. إن شيئًا معينًا في مظهرها لا يريحني.. هذه المشية المتصلبة و..... ثم لماذا لم ترد على ندائك؟»

- «ألم تفهمي بعد؟.. إنها مصدومة عصبيًا.. لقد أفزعها الوغد حتى الموت..»

- «(جون).. أنا لست مستريـ....»

لكنه كان قد انفلت من يدها، وركض نحو الفتاة..

* * *

للأسف توجد على هذه الصفحة بقعة كبيرة أزالت أكثر ما عليها من كتابة.. وهو عيب متكرر في المفكرة كلها..

لهذا من المتعذر على أن أعرف يقينًا وصف (هيلين) لما حدث بعد محاولة (جون) الخرقاء..

لكن يمكننا أن نؤكد ـ دون خطأ كبير - أن (جون) لقي حتفه أمام عيني (هيلين) المذعورتين..

كما يمكننا أن نؤكد أنه هلك غرقًا في المستنقع.. حين عبره في الظلام متخليًا عن حذره..

أما عن (سارة) وما فعلته بعدها، وأين ذهبت؟ فكل هذه أسئلة تستحيل الإجابة عنها..

* * *

يمكنني فقط أن أتخيّل الذعر الذي أصاب (هيلين).
بالتأكيد لم تحاول مد يد المساعدة لـ (جون) لأنهّا تعرف أنه سيجذبها معه إلى المستنقع، ولن يتخلى عنها أبدًا.. هكذا يفعل الغرقى في كل مكان وزمان..
بالتأكيد تناولت الكشاف الذي تركه على الأرض.. وهرعت تغادر المكان مولولة مرتجفة..

لا ألومها كثيرًا في الواقع وهي حبيسة المستنقعات المظلمة.. لا تملك الفرصة للتقدم ولا للتراجع.. ولا تعرف حتى كيف تعود لو كان الوقت نهارًا..

لقد هلك الرجل.. وكم كان مفيدًا لها.. هذه هي فائدة الرجال الوحيدة.. أنهم أقوى وأنّهم يستطيعون الشجار لفترة تسمح للنساء بالفرار...

والأدهى أنها تعلم جيدًا أن (أندرو) ـ الذي جن تمامًا - يمسح المستنقعات الآن بحثًا عنها.. ولسوف يجدها... حتمًا سيفعل..

* * *

لابد أنها جلست تحت الشجرة..

وعلى ضوء الكشاف الواهن، وبخط لا يكاد يُقرأ.. شرعت تدون الأحداث الأخيرة بسرعة وعصبية..

كانت هذه المرّة تدرك يقينًا أن النهاية دانية، وكانت بحاجة لترك شيء للعالم.. كي يعرف من يجدون جثتها ما حدث حقًّا..

لو كان الوقت صيفًا لقضت ليلتها حيث هي، وحاولت العودة في نور الصباح..

لكن هذا الزمهرير.. إن البقاء بلا حراك فيه لا يعني سوى الموت.. الموت حيث هي متحولة إلى تمثال ثلجي..

وهكذا عادت تتحسس طريقها..

❋ ❋ ❋

كانت تتحسس طريقها..
ترمق الأرض الجليدية في تركيز غير عادي..
حين شعرت بذراع تتجه في عنف نحو وجهها..

* * *

يومًا ما قال لها (أندرو) في لحظة صفاء:
- «لقد عشت كثيرًا من الرعب في طفولتي.. وتمنيت أكثر من مرة أن أكبر بسرعة لأرعب الآخرين..»
قالت ضاحكة:
- «ظننتك تمنيت أن تكون مهندسًا.. أمّا عن رغبتك في أن تصير مرعبًا فهو -

لعمري - طموح مبالغ فيه!..»
- «أنا أحب أن أخيف وأخاف..»
- «وأنا تزوجت هذا المخبول؟»
قال وهو يلثم أناملها:
- «المخبولون يعرفون كيف يحبون بصدق..»

❋ ❋ ❋

ولم يكن الذراع سوى غصن شجرة أكثر انخفاضًا من المعتاد...
أجفلت وتراجعت للوراء.. ثم رفعت عينيها..
عندئذ لم تصدق ما تراه..

كان الكوخ ينتظرها على بعد أمتار معدودة!..

* * *

كيف حدث هذا؟ أية معجزة؟

أغلب الظن أنها دارت حول نفسها في أثناء مسيرتها على غير هدى.. وأنها وجدت طريقًا مختصرًا عاد بها إلى الكوخ..

الكوخ الذي بدا لها كواحة في صحراء جرداء.. كمقعد يقدم لمريض قلب في أثناء صعوده إلى ناطحة سحاب.. كأسير روماني بدين يُلقى إلى أسود طال بها الجوع والطوى..

المهم الآن أن تصل إليه..
المهم ألا تتعثر..
ها هو ذا يقترب..
عشر خطوات وتصل إليه.. وبداخله ينتظر الطعام والدفء والأمن.. أمّا زال هناك أمن في هذا العالم حقًّا؟
خمس خطوات..
الباب مازال مفتوحًا كما تركته في الصباح حين خرجت مع (جون).. كل ما عليها هو أن تدخل وتضغط زر الضوء..
خطوتان.. لقد دنت كثيرًا..
كان ذلك حين شعرت باليد الفولاذية تعتصر ساقها..

❋ ❋ ❋

إنها التاسعة صباحًا!..

تصوروا أنني لم أنم بعد بسبب استغراقي في سرد هذه القصة لكم؟!.. كل هذا وأنا مريض، وقد حان وقت تناول كبسولة المضاد الحيوي.. جلوب جلوب!.. أشكركم من جديد على نسيان الموعد.. أنا الذي حرمت النوم على نفسي قبل أن أفرغ من قصتي هذه..

أين كنا؟..

آه... موضوع اليد الفولاذية.. هذا جميل..

* * *

حين فرغت من الصراخ والعويل؛ أمكنها أن تنحني جاثية على ركبتيها لترى ما

هنالك..
وعندئذ رأت وجه (أندرو)..!.. زوجها!..
كان راقدًا فوق الجليد.. ووجهه أكثر شحوبًا من وجوه الموتى.. برغم كونها لم ترَ ميتًا في حياتها..
كان مغمض العينين.. لكنّ شفتيه كانتا تهتزان.. تقولان ما لا يمكن سماعه ولا فهمه...
كانت تخافه وتمقته الآن كأنه ثعبان ذو جرس.. لكنه زوجها مهما حدث..
ماذا دهاه؟.. ما الذي ألقى به ضحية واهنة بعد ما حسبته يبحث عنها ليقتلها؟.. من فعل به أي شيء بالضبط؟
على كل حال.. استجمعت قواها وراحت تجذبه إلى داخل الكوخ.. وعلى الأرض

أراحت جسده..
أضاءت النور الكهربي.. فأمكنها أن ترى أنه غارق في الأوحال ورقائق الجليد.. يرتجف كورقة..
لم يبد لها مرعبًا إلى الحد الذي تصورته..
وراحت تمسح جبينه بأناملها محاولة إرغامه على فتح عينيه..
وقد كان..

اول ما قاله بصوت مبحوح وهو يرمقها بعينيه الحادتين:

- «(هيـ... هيلين).. أ.. أنت بخـ.. بخير..»

- «هل تأسف لهذا؟»

سعل كما يفعل المحتضرون.. وهمس:

- «سا.. سامحيني..»

ـ «هل حقًّا فعلت ما أظن أنك فعلته؟»

لم يرد.. فجذبته من ياقة سترته في خشونة جعلته يتأوه... وكررت سؤالها:

ـ «هل حقًّا فعلت ما أظن أنك فعلته؟»

- «(إكليبوس)!»

قالها بصوت كالفحيح وهو ينظر إلى السقف..



وعندئذ رأت وجه (أندرو) .. زوجها ! ..
كان راقدًا فوق الجليد .. ووجهه أكثر شحوبًا ..

قالت بانفلات أعصاب حقيقي..
- «أنت تخرف! لا يوجد شيء كهذا سوى في عقلك..»
- «ر.. ربما.. لـ.. لكني لـ.. لن أعرف أبـ.. أبدًا!»
ـ «من فعل بك هذا؟»
سألته وهي تتفحص جسمه.. لم تكن هناك جروح واضحة ولا كسور.. ثم.. رأت ذلك الثقب بين طيات سترته ما بين الضلوع.. هناك من طعنه بجسم مدبب.. شيء يشبه الرمح الرفيع جدًّا..
قال وهو يغمض عينيه من جديد:
- «لقد قتلتني.. ي ي!»
- «من هي؟»
- «(سا.... سا....)»

وفرغت الحياة منه كما تفرغ البطارية في دمية أطفال فتكف عن الحركة والكلام...

وعرفت (هيلين) أن (سارة) حية.. وأنها قد استطاعت أن تدافع عن نفسها.. وأن تقتل قاتلها.....

ولكن أين (سارة) إذن؟

لماذا لم تظهر؟

إن آخر مرة رأتها فيها كانت وهي تعبر المستنقعات..

وكانت مختلفة في كل شيء.. لم ترها ولم تتبين ملامحها لكنّها هي حتمًا.. من غيرها؟

* * *

الثانية بعد منتصف الليل:

ليس كونك أرملة سيئًا إلى هذا الحد.. بل لعلك شاعرة بشيء من الراحة لذلك..
إن (أندرو) الآن جثة هامدة بالطابق السفلى ولن يؤذيك.. وأنت هنا آمنة مطمئنة وقد انتهى الكابوس..
لم يبق لك سوى أن تحاولى العودة فوق أخشاب الجسر مع أول ضوء للنهار..
وبخط مستقر ثابت كتبت (هيلين):
«لا أدري.. لم أتصور في حياتي أن الوحدة يمكن أن تكون مبهجة إلى هذا الحد..، وللمرة الأولى أشعر بالراحة والاطمئنان في هذا الكوخ المقيت..»
«حتى وأنا أشعر بأن باب الكوخ ينفتح ببطء لم أعد أخاف شيئًا لأن القادم لن يكون سوى الريح أو (سارة)..

وحتى وأنا أسمع صو..........
....

❋ ❋ ❋

الخاتمة..

كان الفجر قد بزغ في شقّة (عزت)، وكان النعاس قد بدأ يتسلل إلى جفنيه عندما انتهت آخر أوراق المفكرة..

فأغلقتها.. ووضعتها في جيبي..

- «(عزت)..»
- «هم م م م!»
- «أنا عائد إلى شقتي.. شكرًا على كل شيء..»

حرّك يده بما معناه ألا داعي للشكر لأنّه لم يقم إلا بواجبه تجاه صديق مخبول..

وعدت لشقتي ففتحت الشرفة، واستنشقت هواء الفجر البكر.. هواء له رائحة.. ورائحته لها لون.. لا أدري كيف.. هواء لم يتلوث بعد.. ولم تغيره مصاعب الحياة ومشاقها..

فلم يتعلم الرياء ولا الكذب..

وقبل أن أنام (اليوم الجمعة لحسن الحظ) أعدت التفكير في هذه القصة..

أولًا: واضح أن (هيلين) لم تعش بعد كتابتها السطر الأخير.. وإلا أكملت آخر كلمة..

ثانيًا: من قتلها؟

ثالثًا: من قتل (أندرو)؟

رابعًا: هل (سارة) هي قاتلة (أندرو) و(هيلين)؟!

خامسًا: هل (إكليبوس) حقيقي؟
سادسًا: لماذا لم تستجب (سارة) للنداء عليها؟ ولماذا بدت مختلفة؟
سابعًا: من الذي استنقذ المفكرة؟
وهنا بدأت أتوتر..
تناولت الخطاب المرفق مع المفكرة.. وأعدت قراءته مرارًا فلم أن ما يريب..
الاسم: (س. ب) يشير إلى (سارة).. إذن (سارة) قد عادت إلى الكوخ وأنقذت المفكرة وأرسلتها لي.
وهي قاتلة (أندرو) وربما (هيلين).....
لكن لحظة.....
إن اسم (سارة) بالكامل هو (سارة ستوكلي).. (س. س).. وليس (س. ب)..
فمن هي (س. ب)؟

وبدأ شعر رأسي ينمو توطئة لأن يشيب..
دفنت رأسي في الوسادة وتلوت المعوذتين وآية الكرسي عازمًا أن أنام قبل أن أفكر في أفكار مجنونة..
صحيح أن (سارة) و(ساندرا) اسمان متشابهان.. وصحيح أن (ساندرا) تدعى (ساندرا بيكيت) أي (س.ب).. وصحيح أنها تملك كل الأسباب للانتقام من (أندرو) قاتلها ومن زوجته؛ إلا أنّ تصديق هذا مستحيل..
(أندرو) تحدث عن (العائدين) من المستنقع بعد منتصف الليل.. فهل (ساندرا) منهم؟
لم يكن هناك شيء يدعى (إكليبوس).. ولكن ربما كان هناك ما هو أشنع وأخطر..

يجب أن أنام!.. يجب......

❋ ❋ ❋

سأحاول أن أنسى هذه القصة وأعدم المفكرة اللعينة الملوثة بالأوحال.. ولكني قلق على (عزت) الذي تلا هذه المقاطع بصوت عالٍ..... ماذا سيحدث له؟

ومحاولًا النسيان أحكي لكم في المرّة القادمة قصة مسلية بلا رعب على الإطلاق..... مجرد مغامرة في أغوار النفس البشريّة..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة

العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة رعب المستنقعات

الظلام والبرد والمستنقعات غير المتناهية .. أنت هناك .. لكن شيئًا آخر لا تدري كنهه يطاردك .. شيئًا تخشاه أكثر من المستنقعات والظلام .. ولهذا ستركض .. لن تكف عن الركض ..، ولن تدير رأسك للوراء .. لأنك لو فعلت ستراه ....!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة إيجور

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر ــــ
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]

قصة رعب خالدة، سلبت الكثيرين القدرة على النوم في أوائل هذا القرن.